سيرة شبلي الشميّل وأبرز منجزاته[١]

١٨٥٠ - ١٩١٧

تاريخ ميلاد شبلي الشميّل

لم يُجمِعْ واضعو سيرة الشميّل على تاريخ واحد لمولده. فشيخو[٢] لا يذكر سوى تاريخ موته، وكُتّاب السِّيَرِ الأحدث كسركيس[٣]، وكحّالة[٤]، وداغر[٥]، وغراف[٦]، يحدّدون مولده سنة ١٨٦٠[٧]. ونحن نوافق لو سيرف[٨] على أنّ هذا التاريخ مرفوض لأنّه، بحسب صرّوف، فإنّ شبلي كان قد تسجّل في الجامعة الأميركيّة في السنة الثانية من تاريخ تأسيسها، أي سنة ١٨٦٧. وبحسب ملفّات قدامى طلّاب مدرسة عينطورة، فهو كان في الصّف المتوسّط الثاني في هذه المؤسّسة خلال السنة الدّراسيّة ١٨٦٢/ ١٨٦٣. فلو كان قد وُلِدَ سنة ١٨٦٠، يكون قد قُبِل في المدرسة في هذا الصفّ في عمر السنتين، والأمر بالتأكيد غير صحيح. كما هو الحال بخصوص سنة ١٨٥٣، التي ذكرها الزِّرِكْلي[٩]، بحيث يكون قد دخل الجامعة في عمر الرابعة عشرة، الأمر الذي يبدو غير مرجّح، حتّى لمراهقٍ موهوب بشكل استثنائيّ. يؤكّد صرّوف[١٠] أنّ شبلي كان عمره حوالي السبع عشرة سنة حين دخل الى كلّيّة الطّب. يقول لنا الشميّل نفسه في كتابه "**المجموعة**" إنّ عمره كان إحدى عشرة أو اثنتا عشرة سنة حين كان طالبًا في مدرسة عينطورة خلال السّنة الدّراسيّة ١٨٦٢/ ١٨٦٣؛ ممّا يسمح بتحديد تاريخ ميلاده حوالي سنة ١٨٥٠. ومن جهة أخرى يضيف لوسرف[١١] أنّ تاريخ سنة ١٨٥٠ قد أكّدته شهادة أساتذة سابقين في الجامعة الأميركيّة، خصوصًا الأستاذ قربان والدكتور إدوار فان ديك[١٢].

---

[١] هارون، جورج، شبلي شميّل رائد نظريّة التطوّر في عصر النهضة، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانيّة، فرع العلوم الفلسفيّة والاجتماعيّة، ١٦، ١٩٨٥،ص ٣٠ - ٣٢، ٣٥ — ٤٤، ٤٦ — ٤٨، ٥٠ — ٧٧.

[٢] **آداب**، ص ١٥٧ — ١٥٩ ؛ **المخطوطات العربيّة**، مرجع سابق، ص ١٢٧.

[٣] ص ١١٤٤ — ١١٤٥.

[٤] ص ٢٩٤.

[٥] ص ٤٩٧.

[٦] ص ٢٨٠.

[٧] يذكر لو سيرف، على نحو غير صحيح، أنّ هذا التّاريخ وارد أيضًا في قاموس السيرة الذاتيّة، **الأعلام** للزِّرِكْلي (مراجعة لو سيرف، ...، ص ١٧٣).

[٨] ص. ١٥٦.

[٩] III – IV ص. ٢٢٧.

[١٠] **أعلام المقتطف**، I، ص. ٢٨٩.

[١١] ص ١٧٣.

[١٢] ابن الدكتور كورنيليوس فان ديك (مراجعة زيدان، **تراجم مشاهير الشرق**، ٢، ص ٣٩، ١٠٩)

الطفولة المُبكِرة

نحن نجهل كلّ شيء تقريبًا عن طفولة شبلي الشميّل المُبكِرة. يأخذ كاتبو السِّيَر معلوماتهم من معاصريه الذين لم يهتمّوا لأمره إلى حين نشر أهمّ كتبه، وخصوصًا بعد موته. في ما يخصّ دراساته الأولى، تذكر أيمي خير[١]، دون أيّ تفصيل، أنّ شبلي كان في عمر الخمس سنوات في مدرسة المرسَلِين الأميركيّين. زيدان يذكر[٢] إحدى المدارس في تلك الحقبة في كفرشيما حيث الصحافيّ البارز سليم تقلا، وهو من نفس القرية، تعلّم أُولى سني دراسته. أيمكن أن تكون المدرسة نفسها التي تردّد إليها الشميّل؟

شبلي الشميّل في مدرسة اللّعازريّين في عينطورة

معلوماتنا الضئيلة عن دراسة شبلي الابتدائيّة لا تمنع من معرفة أنّه تردّد الى ثانويّتين من أشهر الثانويّات في ذلك الوقت، وهما مدرسة مار يوسف عينطورة[٣] في كسروان، والمدرسة البطريركيّة للروم الكاثوليك في بيروت. الأولى ذكرها إميل زيدان[٤] ويوسف داغر[٥] دون أيّ تفاصيل أخرى. يأتي الشميّل على ذكرها في كتابه (**مباحث علميّة واجتماعيّة**، **المجموعة**، الجزء الثاني)[٦] حيث يلوم النّاظر لانّه يطبّق طرقًا تربويّة لا إنسانيّة، وقد عانى منها هو نفسه: "أيّ قساوة وحشيّة تفوق ما أرويه لك عن معاملة المعلّمين للتلامذة في بعض هذه المدارس الكبرى. فإنّي يوم كنْتُ تلميذًا، وسنّي بين ١١ و١٢ سنة، كان مُلاحِظ منامتنا كلّما رأى تلميذًا مكشوفًا وهو نائم، يوقِظه بضربه بعصًا رفيعة على رجلَيه عوضًا عن أن يُغطّيه كما كان يفعل أبوه أو أمّه، مع أنّ عمل الضرب لا يُوجِب على حضرته صرف قوّة أقلّ ممّا يُوجِب عملُ التغطية". (**مباحث علميّة واجتماعيّة**، ص ١٧٥).

إنّ مرور شبلي في مدرسة عينطورة هو من جهة مؤكَّد من خلال ملف المؤسّسة للسّنة الدّراسيّة ١٨٦٢ – ١٨٦٣، فقد كان يتابع دروس الصّف الخامس الأساسيّ، بصفة تلميذ داخليّ. على أيّة حال، إنّها السنة الوحيدة المسجّل فيها حضوره. ولكن، وبالرغم من أنّ المدّة قصيرة، فإنّ إقامته قد أعطته معرفة متينة في اللّغة الفرنسيّة، الأمر الذي كانت تشتهر به[٧] المدرسة، وهذا ما سيستعمله لاحقًا، في كتاباته، إلى جانب اللّغة العربيّة. يخبرنا أيضًا شاكر الخوري أنّ[٨] "الوقت المخصَّص في هذه المدرسة للصلاة وللممارسات التقويّة كان يملأ قسمًا كبيرًا من النّهار ممّا كان يُرهِق الطّلاب". ألَا يمكننا، إذًا، افتراض أنّ كلّ تلك العوامل قد ساهمت بشكل كبير في تشكيل الأفكار المعادية للدين لدى الكاتب الذي سيطالب، في عرضه لآرائه التّربويّة، بالغاء التّعليم الدينيّ في المدارس الحكوميّة؟ كذلك سيطالب باحترام شخصيّة الطّالب، كما سنرى خلال عرض أفكاره التّربويّة.

[١] ص ٢.

[٢] المرجع نفسه. يخبرنا صرّوف أنّ ملحم، أخ شبلي غير الشقيق، كان على علاقة بالمرسلين الأميركيّين في أيّام ايلي سميث. (مراجعة **أعلام**، I، ص. ٢٨٩)

[٣] تأسّست سنة ١٧٣٤ من قبل اليسوعيّين، أُغلقت سنة ١٧٧٣، وأُعيدَ فتحها سنة ١٨٣٤ من قبل الآباء اللّعازريّين.

[٤] مراجعة **الهلال**، XXV / 1917، ص. ٤٢٢.

[٥] **مصادر الدراسة الأدبيّة**، II، ص ٥٤١.

[٦] ص ١٧٥.

[٧] مراجعة **المشرق**، المرجع نفسه، الصفحة نفسها ؛ مراجعة أيضًا الخوري، شاكر، مرجع سابق، ص ٩٥.

[٨] مرجع سابق، ص ٨٩ – ٩٠.

شبلي الشميّل في المدرسة البطريركيّة

أمّا بالنسبة للمدرسة البطريركيّة في بيروت[١]، فينفرد الشميّل بالحديث عنها في مذكّراته حيث يُخبر قصصًا عن الشّيخ ناصيف اليازجي الذي كان أستاذه للّغة العربيّة. "كانت الإدارة تغضّ النظر عن بعض ميوله، كما يذكر الشميّل، فقد كانت تسمح له بتدخين سيجارة خلال الحصّة وكنا نتسابق لكي نلفّها له، إذ إنّه لم يكنْ يُفلِح بذلك، على أمل أن نأخذ نفخة لذيذة منها قبل أن نقدّمها له"[٢]. يروي لنا الشميّل، في نفس المقطع، أنّ الشّيخ ناصيف كان يعلّم القواعد في كتابه **جوف الفرا**[٣]. وبما أنّ هذا الكتاب هو عبارة عن قصيدة تعليميّة طويلة تُعالج موضوع النحو، مُرفَقة بتفسيرات طويلة وملائمة، على الأقلّ لمستوى الصفوف الثانويّة، يمكننا الاستنتاج أنّ الشميّل قد تابع هذه الصفوف. وإنّ عشرة الشيخ ناصيف في المدرسة البطريركيّة، وكذلك عشرة ابنه الشّيخ إبراهيم الذي ربطته به صداقة متينة، قد ساهمت لحدّ بعيد في هذا الأساس المتين في اللّغة العربيّة الذي سيتجلّى لاحقًا في أسلوبه في النثر والشعر. ومن المرجّح أنّ شبلي قد تردّد على المدرسة البطريركيّة خلال السنوات الأولى من تأسيسها.

بيئة الشميّل الفكريّة

ساهمت عوامل عدّة في توجيه الشميّل نحو الحياة الفكريّة. أوّلًا البيئة المثقّفة في كفرشيما، "مهد مجموعة كاملة من العلماء الذين لا تزال شهرتهم مضيئة"[٤]. نذكر من بينهم علماء اللغة مثل اليازجي[٥]، والصحافيّين مثل سليم تقلا[٦]. نذكر ثانيًا تأثير البيئة العائليّة التي، بحسب لوسيرف[٧]، كانت حاسمة للشميّل. شيخو[٨]، كما صرّوف[٩]، يعلماننا بأنّ شبلي من عائلة علماء ذوي جدارة كبيرة. والده إبراهيم كان يُعتبر من الوجهاء والمتعلّمين في البلد. إخوته، وهم أكبر منه سنًّا، سبقوه في المهنة الفكريّة وعلى درب الشهرة. لقد كانوا، بالنسة إليه، القدوة وما كان عليه سوى تقليدهم. فملحم، أخوه غير الشقيق (١٨٢٦ – ١٨٨٥)، قد علّم في المدرسة الكبرى للروم

---

[١] تأسّست سنة ١٨٦٤ على يد بطريرك الروم الكاثوليك غريغوار (مراجعة المعلوف، عيسى اسكندر، **مختصر المشايخ اليازجيّين**، I، ٩ ؛ مراجعة أيضًا **المقتطف** (١٨٨٦ – ١٨٨٧)، ص ٧٠٠.

[٢] مراجعة مقتطف من **الحوادث والخواطر** الصادر في مجلّة فتاة الشرق للبيبة هاشم، تحت عنوان **الشيخ ناصيف اليازجي وولده الشيخ إبراهيم**، السنة السابعة (١٩١٢ – ١٩١٣)، ص ٥٤ والتالية.

[٣] الاسم الأصليّ لهذا الكتاب المُعطى من الشّيخ ناصيف هو: **نار القرى في شرح جوف الفرا**؛ والشيخ إبراهيم، ابن الشيخ ناصيف، هو مَن قام بتلخيصه، والنحويّ اللّبنانيّ سليم عطيّة هو من فسّر الاستشهادات في أبيات شعريّة، ونشرها في كتاب عنوانه : عقود الدّرر في شرح شواهد المختصر (مراجعة فان ديك، اكتفاء القنوع، ص ٤٠٣)

[٤] مراجعة زيدان، **تراجم**، ص ٩٩.

[٥] اليازجي، الشيخ ناصيف، شاعر كلاسيكيّ، عالم لغة وكاتب **مجمع البحرين** ؛ ابنه الشيخ إبراهيم، عالم لغة ومؤسّس مجلّة **الضياء**؛ ابنته وردة اليازجي، شاعرة.

[٦] مؤسّس الصّحيفة اليوميّة في اللّغة العربية **الأهرام** الصادرة في مصر.

[٧] ص ١٧١.

[٨] **آداب**، II، ١٣٩ – ١٤٠.

[٩] **أعلام المقتطف**، II، ص ٢٩٠.

الأورثوذوكس في سوق الغرب. وأخوه الثاني غير الشقيق أمين[١] كان يمتهن المحاماة، وذاع صيته في هذا المجال[٢]، وكان المؤسّس لأوّل مجلّة قانونيّة[٣] عربيّة، فضلًا عن كونه كاتبًا وشاعرًا، ولدينا من مؤلّفاته كتابات قانونيّة وأدبيّة[٤]. يُخْبِرُ زيدان أيضًا أنّه كان قد اكتسب معرفة كبيرة باللغات الفرنسيّة والإيطاليّة والتركيّة والعربيّة واللّاتينيّة[٥]. كما وأنّه قد ترك رسائل في الفلسفة والتاريخ والدّين والقانون والسّياسة والعلوم الطّبيعيّة[٦]. كتابه الأكثر شهرة هو **المبتكَر**[٧].

وكذلك فإنّ أولاد أخيه البكر غير الشّقيق، خليل إبراهيم الشميّل، لم يكونوا أقلّ لمعانًا من أعمامهم ملحم وأمين وشبلي في مجالات الأدب والصحافة. فسبع، وهو أحدهم[٨]، كان مفكّرًا كبيرًا في عصره. وقد مارس أوّلًا مهنة التّعليم في المدرسة البطريركيّة في بيروت، ثمّ في مدرسة الآباء اليسوعيّين في المدينة نفسها؛ واستلم إدارة المطبعة الكاثوليكيّة، وكتب في جريدة البشير الناطقة بلسان اليسوعيّين[٩]. بعد أن هاجر الى مصر، مارس أيضًا مهنة الكتابة. وقد نُشرت مقالاته في صحف بيروت والقاهرة، وحتّى في أوروبّا[١٠]. وابن اخ الشميّل الآخر، رشيد، كان مالك ورئيس تحرير **البصير**، الصحيفة المصريّة باللّغة العربيّة، حيث أصدر شبلي عددًا كبيرًا من المقالات التي نُقل جزء كبير منها لاحقًا في كتابه **المجموعة**[١١]. وقيصر الشميّل ابن أخ شبلي الثالث، وهو شقيق رشيد، قدّم مساهمة للأدب وكذلك للصّحافة، وكان ينشر في **البصير** مقالات سياسيّة وأدبيّة واقتصاديّة وماليّة واجتماعيّة. وكان يُترجِم لها قصصًا وكتبًا مختلفة[١٢].

"وهكذا، يكتب صرّوف[١٣]، وُلِد الشميّل في بيت لبنانيّ معروف بعلمه وفضائله. ابن هكذا والد، محاط بمثل هؤلاء الإخوة، ليس بغرابة أن يكون قد طوّر مهارات علميّة وفلسفيّة، جامعًا الثقافة والميل إلى العلوم الأخلاقيّة والطبيعيّة"[١].

---

[١] (١٨٢٨ – ١٨٩٧). وُلِدَ في كفرشيما، ودرس عند المرسلين الأميركيّين. سافر إلى إنكلترا حيث عمل بالتجارة في ليفربول مع أخيه ملحم، ثمّ جاء إلى مصر واستقرَّ فيها ليمارس التّجارة، ولكنّه لم ينجح في ذلك. (مراجعة فان ديك، مرجع سابق، ص ٤٨٩ ؛ شيخو، **آداب**، II، ص ١٣٩ والتالية؛ **Geschichte der christichen arabischen Litteratur**، IV، ص ٣٣١)

[٢] يقول زيدان إنّ عمر أمين كان بالكاد واحدًا وعشرين سنة حين كُلِّف بتحكيم نزاع شنيع كان قد وقع بين البطريرك مكاريوس مظلوم والمطران أغابيوس. وقد تمكّن من حلّ هذا النّزاع بعد عامين من المجهود. (مراجعة زيدان، **تراجم**، II، ص ١٨٢ والتالية).

[٣] بحسب زيدان، كانت تحت عنوان **القضائيّة** (مجلّة المسائل القضائيّة) (مراجعة **تراجم**، ص ١٧١) ؛ وبحسب شيخو، كانت تُسمَّى الحقوق (مجلّة الحقوق) (مراجعة **آداب**، II، ص ١٣٩).

[٤] مراجعة المرجع نفسه، وشيخو، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[٥] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[٦] مراجعة **الكتاب التذكاريّ لجريدة البصير في عيدها الذهبيّ (١٨٩٧ – ١٩٧٤)**، مطبعة البصير، الإسكندريّة، ١٩٤٨، ص ١٠١.

[٧] وقد أنهى كتابته في ليفربول سنة ١٨٦٧، ونشره في المطبعة السّوريّة في بيروت.

[٨] (١٨٦٧ – ١٩٠١). مات من الالتهاب الرئويّ في عمر الرابعة والثلاثين في شهر حزيران (مراجعة شيخو، **تاريخ**، II، ١٩٢٦، ص ٢٤ ؛ ال**هلال**، IX / ١٩٠٠ – ١٩٠٧، ص ٥٢٤).

[٩] **الكتاب التذكاريّ لجريدة البصير**، مرجع سابق، ص ١٠١ – ١٠٢.

[١٠] طرّازي، **تاريخ الصحافة العربيّة**، IV، ص ٢٢١. بين الصحف المصريّة التي كان يكتب فيها، تبرز **الأهرام** و**البصير** (مراجعة **الكتاب التذكاريّ**، المرجع نفسه، الصفحة نفسها).

[١١] مراجعة شيخو، **تاريخ**، II، ص ١٦٧.

[١٢] مراجعة **الكتاب التذكاريّ**، مرجع سابق، ص ١٠٤.

[١٣] **المقتطف**، XXXVI / ١٩١٠، ص ٥٠٠.

ويشير لوسيرف إلى تأثيرين آخرين: الأوّل هو الأصل اللّبنانيّ. إنّ لوسيرف يجد، لدى هذا الشّعب (ص ١٧٦)، صفات سائدة كالطاقة والنّشاط والذكاء والحركة المتواصلة، والميل إلى المغامرات الخياليّة أو المُعاشة "التي يرافقها حسّ عمليّ واضح للغاية". ويبدو أنّ هذه الصّفات تظهر خصوصًا عند أكبر ممثّلَين لعائلة الشميّل: أمين، وشقيقه شبلي (ص١٧٢). والعامل الثاني، الذي ساهم أيضًا في تدريب الشميّل، هو دون شكّ الطبيعة القاسية في لبنان: قممه العالية البيضاء والعارية بوجه بحر رماديّ أو زهريّ اللّون، التي باستطاعتها "أن توقظ عند البعض الميل إلى المغامرة، وعند البعض الآخر الميل إلى أحلام اليقظة، وعند الجميع الرّغبة في الفرار إلى البعيد، في الحقيقة أو في الخيال" (ص ١٦٧).

والعامل الأخير الذي قد يكون أيضًا وجّه شبلي الشميّل نحو الحياة الفكريّة والعلميّة، هو الجوّ الثقافيّ العامّ الذي كان سائدًا في مصر، وفي لبنان، في النّصف الثّاني من القرن التاسع عشر. النهضة الأدبيّة والعلميّة التي بدأت في مصر في أيّام محمّد علي، وفي لبنان ابتداءً من الثلث الأخير من القرن الماضي، كانت قد وصلت ذروتها في أيّام الشميّل. وقد ظهرت من خلال جميع المجالات الثّقافيّة تقريبًا: مدارس، وجامعات، وصحافة أدبيّة وسياسيّة، ومسرح، ومكتبات، وطباعة أعمال مختلفة، وترجمة كتب في العلوم الحديثة واختصاصات في مختلف فروع المعرفة. قُدامى المدارس والجامعات كانوا يشكّلون عددًا كبيرًا من الأساتذة والكتّاب والأطبّاء والتقنيّين والمفكّرين[٢]. وكانت بيروت وحدها تضمّ، بحسب شيخو، نحو نهاية القرن، أكثر من مئة صحيفة ومجلّة أدبيّة وسياسيّة، وعرفت كذلك ازدهارًا مذهلًا في مجال العلوم الإيجابيّة، ازدهارًا أدّى إلى انعكاسات على الصعيد الاقتصاديّ والسياسيّ والاجتماعيّ. "اللّبنانيّون وجدوا أنفسهم هكذا منجذبين على نحو مضاعف، بحسب لوسرف، نحو التعلّم والهجرة. والذين كانوا ينفون أنفسهم الى وادي النّيل، كانوا يتحولّون تلقائيًّا الى وسطاء ثقافيّين بين الشرق والغرب"[٣] .

قبول انتسابه إلى كلّيّة الطب

نعرف عن فترة دراساته الطّبيّة بفضل اعترافاته[٤]، واعترافات يعقوب صرّوف زميله[٥]. ففي الواقع كتبَ هذا الأخير، على أثر وفاة رفيقه في الدراسة وصديقه سنة ١٩١٧: "ما من شيء أصعب من إنجاز واجبٍ أليم. ويا له من واجب، بكاء صديق حميم منذ الطّفولة وحتّى الشيخوخة!..."، منتقلًا الى وصف الجامعة الأميركيّة المدَشَّنة سنة ١٨٦٦ "في مبنى صغير مجاور للمدرسة الوطنيّة، المؤسَّسة سابقًا من قِبل الخالد بطرس البستاني"، يصف لنا دخول شبلي إليها: "كاتب هذه الصّفحات كان من بين طلّاب السّنة الأولى. خلال فصل الخريف من السنة التالية، تمّ إنشاء فرع لتعليم العلوم الطبّيّة استقطب دفعة من طلّاب السّنة الأولى، وكذلك طلّابًا جددًا قادمين من مدارس أخرى. من بين هؤلاء، كان يُلاحظ شاب في السابعة عشرة من عمره، قصير القامة وأسمر البشرة وذو ذهن حاد،

---

[١] **أعلام المقتطف**، I، ص ٢٨٩.

[٢] فؤاد صرّوف، **نشاط العرب العلميّ في مئة سنة في الأبحاث**، X ، حزيران ١٩٦٢، ص ١٦٠ وما يلي.

[٣] ص. ١٦٧.

[٤] **أعلام المقتطف**، I، ص ٢٨٨ – ٢٩٣. يعقوب صرّوف كان يومها من طلّاب كلّيّة العلوم، وهي الأولى التي تأسّست في الجامعة الأميركيّة في بيروت.

[٥] ص ٢٣ – ٢٧.

يكشف وجهه عن التميّز والتّهذيب، يرتدي بحسب الأسلوب الاوروبيّ، وكان شيئًا نادرًا في ذلك الوقت، وهو صاحب السّيرة. ولكنّ معظم الطّلّاب الجدد الذين جاءوا من مدارس أخرى كانوا خارجيّين لا يظهرون إلّا في المحاضرات. لذلك لم نرَ كثيرًا هذا الشّاب خلال تلك السّنة".

ثمّ يخبرنا صرّوف كيف أنّ القدر قد ربطه بشبلي: "في السّنة التالية نُقلَتِ المدرسة إلى مبنًى كان مستأجرًا لهذا الغرض، مع صالة كبيرة للمحاضرات حيث خُصّص للطلّاب مكتب لكلّ اثنين منهم. وقد أجلَسَنا القدر جنبًا إلى جنب، أنا وهذا الطالب الشّابّ، وقد أمضينا عامَين على هذا النّحو شريكَين في الأعمال خلال الحصص المشتركة، كعلم النبات والكيمياء والفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضاء)، وكذلك في المواضيع التي كانت تقرّبنا منها ميول طبيعيّة مشتركة مثل الشعر وفنّ الكتابة"[1]. "يتابع صرّوف[2]: صدفة غريبة أنّنا وُلِدنا في قريتين قريبتين، إذ إنّه كان من نفس بلدة الشّيخ ناصيف اليازجي[كفرشيما]، معلّمنا ودليلنا في اللّغة العربيّة في بلاد الشام خلال تلك الفترة. أمّا قريتي [حدث بيروت][3] فكانت قد أعطت أحمد فارس الشّدياق، مدير مجلّة الجوائب، أحد أهمّ معلّمي اللّغة العربيّة والشّعر وفنّ الكتابة. ويبدو أنّ كلّ واحد منّا كان يودّ تقليد ابن بلدته، فرحنا نتنافس بحماس لاتّباع خطى أبطالنا".

أساتذته في كلّيّة الطب

عُهد، سنة ١٨٦٧، إلى ثلاثة أطبّاء: الدكاترة كورنيليوس فان ديك[4]، وجان ورتبيت، وجورج بوست، بإنشاء كلّيّة طبّ عند دخول الشميّل إلى الجامعة الأميركيّة في بيروت التي تأسّست في العام السابق. وبسبب قلّة عدد طلّاب الكلّيّة في بداياتها، تقاسم الأساتذة البارزون الثلاثة تعليم جميع الموادّ. الدكتور فان ديك تكفَّلَ بمفرده بتعليم الكيمياء، وعلم الأمراض، والتشخيص. أمّا علم التشريح والفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) فقد أُسنِدَ إلى الدكتور ورتبيت. أمّا علم النبات والمسائل الطبيّة والجراحة فتكفّل بها الدكتور بوست[5]. كان مدير الجامعة في ذلك الوقت الدكتور دانييل بليس، مؤسّسها، الذي كان يُعطي في بادئ الأمر دروسًا في الرياضيّات، وبعدئذٍ دروسًا في الفلسفة العقلانيّة والأخلاقيّة[6].

كتب جرجي زيدان: "كان الطّبّ يُدَرَّس باللّغة العربيّة. وبما أنّه لم يكن ثمّة كتب مناسبة، كان الأساتذة يكرّسون أوقات فراغهم لتأليفها، وإملاء ما قد ألّفوه على طلّابهم. وكان هؤلاء ينسخونه على دفاترهم، ويدرسونه في منازلهم. وهكذا كان طلّاب كلّيّة الطّبّ،

[1] **أعلام المقتطف– I**، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[2] **أعلام**، ص ٢٨٩.

[3] حدث بيروت. إنّما بحسب زيدان، وهو مصدر موثوق، فإنّ الشّدياق قد وُلد في عشقوت، والعائلة قد استقرّت لاحقًا في الحدث. (مراجعة **تراجم**، II، ص ٨ والتالية).

[4] قال عنه شبلي لاحقًا، في سنة ١٩١٦: "أستاذنا الأكبر" (مراجعة **المقتطف**، ٤٨ / ١٩١٦، ص ٣٩٦).

[5] مراجعة **أعلام**، I، ص ٢٣٩ ؛ زيدان، **تراجم**، II، ص ٢٣٥، ٢٣٩ ؛ **تاريخ**، IV، ص ١٩٩ والتالية؛ **مذكّرات**، ص ٦٥.

[6] **أعلام**، ص ٢٨٠ والتالية.

خلال السنوات الأولى من تأسيسها، ينسخون بأنفسهم الدروس ولا يتذمّرون، لأنّهم كانوا يجدون في أساتذتهم مثلًا حيًّا في الجهد والطاقة والمثابرة"[١].

لا بدّ أنّ هذه الأعمال التي كان يمتزج فيها التطبيق بالتعليم النظريّ، والمفاهيم النظريّة بالأمثال الواقعيّة، قد أثّرت كثيرًا في فكر الشابّ شبلي، وقوّت عنده هذا الفكر الإيجابيّ الذي سيميّز كلّ نشاطه اللّاحق. سوف يستوحي منها نقده للتعليم مثلما كان يُمارَس في الشّرق، فضلًا عن هجماته العنيفة ضد الشّكليّة التقليديّة التي كان يتّصف بها التّعليم. هذا المستوى العالي من التعلّم سمح له أيضًا بأن يحصل على تدريب طبّيّ قويّ، وسيساهم في نجاحه في ممارسة هذه المهنة، هذا النجاح الذي أكّده بالإجماع كُتّاب سيرته[٢].

التربية المتحرّرة

الى جانب الطرق العمليّة، كانت التّربية المُعطاة في الجامعة الأميركيّة تختلف عمّا هي الحال في كلّ الجامعات والمدارس الأخرى في العالم العربيّ بسبب انفتاحها على الإنسانيّة، بمعنى أنّها كانت مبنيّة بشكل أساسيّ على مبدإ احترام شخصيّة الكائن البشريّ وحرّيّته [٣]. وفضلًا عن ذلك كانت تهدف إلى تعزيز مشاعر الصّدق، والشّجاعة، والجرأة، والتسامح الدّينيّ لدى الطّالب[٤].

كانت الجامعة مَدينةً في بداياتها، في هذا النوع من التربية، بشكل خاصّ إلى رئيسها الأوّل الدكتور دانييل بليس. وينسب إليه مؤرّخو[٥] هذه المؤسّسة صفات تربويّة ذات مستوى عالٍ. يمتدح صرّوف، خصوصًا، الاهتمام الذي كان يُوليه لتنشئة طلّابه أخلاقيًّا[٦]. ويشير الشميّل لاحقًا، في مقال صادر سنة ١٨٩٨[٧]، إلى الصفات التّربويّة الرفيعة لرئيسه السابق: "طلبْتُ يومًا ما، وأنا على المائدة، طعامًا غير موجود، وكان ذلك جائزًا لنا، فأباه العشيّ عليّ. فغضبْت لذلك جدًّا، وقمْتُ من عن المائدة واندفعْت إلى المطبخ كالآلة العمياء، وتناولْت الشيء الذي طلبْته ثمّ رميْت به إلى الأرض، ودسْته تحت قَدَمِي. ثمّ رجعْت إلى مكاني وأنا أنتظر العقاب على ذلك وأقلّه الطرد. وكان للمدرسة رئيس من أفاضل الرجال، عاقل حكيم اسمه الدكتور بْلِسّ، أطال الله بقاءه. فأبلغوه الأمر، فكأنّه نظر إلى سوابقي الحسنة، وربّما راعى اجتهادي في الدرس كذلك، فأَمهلني يومين ولم يقابلني وأنا أنتظر من دقيقة إلى أخرى أن يطلبني. فلمّا كان اليوم الثالث كنْت في ساحة المدرسة وحدي، فرأيته مقبلًا عليّ وبيده كتاب، فجمدْت في مكاني، وعلاني اصفرار الوَجَل وخفق قلبي. فلمّا دنا منّي تبسَّمَ، ومالَ إلى أُذني كأنّه يريد أن يُسِرَّ إليّ أمرًا، وقال لي بصوت منخفض: "إذا غضبْتَ مرّى أخرى فلا تُرَتِّبْ على غضبك عملًا إلّا بعد أربعٍ وعشرين ساعة"، وتركني. فبقيتُ جامدًا في مكاني لا أتحرَّكُ. وعلاني احمرار الخجل، واستولى عليّ الدّوار.

---

[١] مراجعة، زيدان، **تراجم**، II، ص ٢٣٩.

[٢] مرجع نفسه، ص ٢٩١ ؛ يُراجَع أيضًا زيدان، إميل جرجي في **الهلال**، ص ٢٥ (١٩١٧)، ص ٤٢٥ (بيان في **البصير**، يوميّات رشيد الشميّل).

[٣] مراجعة زيدان، **مذكّرات**، ص ٦٨ – ٦٩.

[٤] هذا الأمر قد ذُكر عند زملاء الشميّل، قدامى الجامعة الأميركيّة والمؤرّخون (مراجعة **تراجم**، II، ص ٢٣٢ ؛ **أعلام**، I، ص ٢٣٢، ٢٣٩، ٢٧٨).

[٥] مراجعة المرجع نفسه، ص ٢٣٢ والتالية ؛ **أعلام**، ص ٢٨٠ والتالية.

[٦] **أعلام**، ص ٢٨٠.

[٧] **رجال الغد**، نُشر في صحيفة **البصير** سنة ١٨٩٨ وأُعيد نشره في **المجموعة**، ص ١٧٤ – ١٧٥.

ولا أعلمُ كم بقيْتُ في هذه الحالة لا أنتقلُ من مكاني، وإنّما الذي أعلمه أنّني اعتبرْتُ بهذا العقاب كثيرًا، وحسبْتُه أشدّ من الضرب والطرد، وأَدْعَى إلى الإصلاح". هذه التربية الإنسانيّة والمتحرّرة ستبقى مطبوعة في ذاكرة الشميّل، وسَتُوَجِّه سلوكه بعد ذلك؛ وسنراها باديةً في آرائه التّربويّة.

خلال فترة إقامتهم في الجامعة الأميركيّة في بيروت، كان شبلي ورفاقه في الصفّ يقومون، من وقت لآخر، برحلات قصيرة كانت الأهداف منها متعدّدة، ولقد ذكرَ البعضَ منها في مذكّراته[1]. ونحن نعرف، من خلالها، أنّ الرحلة الأولى كانت سنة ١٨٧٠ إلى اللّاذقيّة. كان شبلي جزءًا من وفد من كلّيّة الطّب الذي توجّه لإغاثة ضحايا الزلزال الذي حدث في تلك المدينة. هذه المبادرة لا تفاجئنا إذ إنّ إدارة الجامعة كانت تحاول تطوير حسّ المساعدة عند طلّابها. يُضاف إلى ذلك أنّ الكليّة الأميركيّة للطبّ كانت الوحيدة من نوعها آنذاك في لبنان والشرق الأدنى، فكلّيّة جامعة القدّيس يوسف في بيروت لم تَرَ النّور الّا سنة ١٨٨٣.

تأثير الحياة الجامعيّة على الشميّل

مثل معظم قدامى الجامعة الأميركيّة في بيروت، سيحتفظ الشميّل بذكريات لا تُنسى عن التعليم الذي تلقّاه فيها، خصوصًا في كلّيّة الطّب. سيشعر بحنين إلى تلك المباني حيث تغذّى خاصّةً من العلوم الطّبيعيّة، وهي العلوم الحقيقيّة. في مقاله في كتاب **المجموعة**، تحت عنوان **حلمٌ هو الحقيقة**[2]، يذكر أنّه كان يرى في الحلم وطنه ومدرسة شبابه، وهذا الحلم لم يكن يختلف بشيء عن الواقع.

كتبَ قائلًا: "[...] وإذا بعاصفة حملتني، ثمّ وقفَتْ بي على شاطئ بحرٍ رملُه كحصباء الدرّ. فأَجَلْتُ طَرْفي من "مفقش الموج إلى مَبسَم الثلج"، وقلْتُ سلامٌ عليك أيّها الوطن الحبيب. وإذا أَكَمَة كأنّها كرسيّ الجوزاء قائمة تُطِلُّ على ذلك البحر، وعليها بناءٌ فخم أو هو سلسلة بنايات تُناطِح السحاب سموًّا وكأنّي فيها، فرأيتُ ميازيب العلم تتدفّق منها كالبحر الزاخر علومُ المعادن والحيوان. علومُ النبات والحيوان. علوم الطبيعة والكيمياء. علوم منافع الأعضاءوطبّ الأبدان. علوم الأفلاك والأحداث الجوّيّة، وعلوم اللغات بقدر ما يستطيع الإنسان أن يفهم ما يعلم، وأن يُعبِّر عمّا يَفهم[3]. فتذكّرتُ عهدًا مضى، وقلتُ: هذه مُرْضِعَةُ العلم الصحيح، وذكرتُ قولي فيها يوم فِصالي عنها".

---

[1] مقتطفات من كتاب الشميّل غير المنشور، **حوادث**. في **زهور**، السنة الرابعة، عدد رقم ٨، كانون الأوّل ١٩١٢، ص ٤١١ – ٤١٨.

[2] ص ٢٠٣ وما يلي.

[3] يشير هنا الى العلوم الأدبيّة والفلسفيّة التي هي، بحسب رأيه، نظريّة ومبهمة وخياليّة، وسوف ينتقدها لاحقًا (مراجعة الفصل المخصّص لأفكار الشميّل التربويّة [وهو الفصل الرابع من كتاب جورج هارون **شبلي شميّل رائد نظريّة التطوُّر في عصر النهضة** (بالفرنسيّة) ص ٢٧٩- ٣١٠).

رحلته إلى أوروبّا

رحلة الشميّل الى أوروبّا، المؤكّدة من قبل معظم كتّاب سِيرته ومنه شخصيًّا، قام بها بعد تخرّجه من كلّيّة الطبّ. ولكن ينقصنا عمومًا معلومات كافية عنها، مع أنّها كانت مفصليّة في تطوّر فكره[١]. بحسب مقالٍ لصرّوف، منشور في **المقتطف**، قد يكون الشميّل سافر حوالي سنة ١٨٧٥[٢]، وبحسب إميل جرجي زيدان[٣] وجريدة **البصير**[٤]، الواسعَي الاطّلاع عمومًا، فهو قد أقام في باريس لمدّة سنتين. وهذا ما تؤكّده على كلّ حال إيمي خير (ص. ٤)، فبحسب رأيها، أقام شبلي كذلك لفترة تزيد عن الستّة أشهر في ليفربول عند أخيه غير الشقيق بشارة[٥] الذي كان قد أعطاه أمين، وهو أخ آخر غير شقيق، فرعًا في تلك المدينة[٦]. تصفه السّيدة خير في هذه الفترة كالآتي: "مُلتحٍ، ويلبس ساقيّة[٧] وقبّعة رسميّة، يتكلّم الفرنسيّة بطلاقة، والإنكليزيّة بشكل كافٍ..."[٨].

هدف تلك الرحلة كان مبدئيًّا أن يتخصّص في باريس في الدراسات الطّبّية[٩]. وقد وفّر له الأموال اللازمة أخوه غير الشقيق أمين. والبرهان المُعطى أيضًا من قِبل السّيّدة خير (ص ٣) هو أنّ "صحّة والده العجوز غير المستقرّة كانت تتطلّب في الوقت نفسه اهتمامًا كبيرًا ،ونفقات عالية بالكاد يكفيها دخل الأسرة المتواضع، وفي ذلك الوقت كان أمين تاجرًا في إنكلترا".

شبلي في إسطنبول

بحسب إيمي خير (ص ٥)، عند عودته من أوروبّا، من الممكن أن يكون شبلي قد قرّر الاستقرار في مصر (في الإسكندريّة). ولكن بحسب إميل زيدان[١٠]، عند عودته من باريس، ذهب شبلي إلى إسطنبول للتقدّم من امتحان الطّب النّهائي الذي يخوّله ممارسة مهنته في السلطنة العثمانيّة[١١]. وكانت اللّجنة الفاحصة مؤلَّفة من أساتذة المكتب الطّبّي للباب العالي[١٢]. كانت الاختبارات تطال كلّ المواد المدروسة. لكنّ هذه الرحلة، على ما يبدو، لم تتمّ فورَ تخرّجه من الجامعة، أي سنة ١٨٧١ لأنّه، كما رأينا، أرسله والده حينها إلى

---

[١] لو سيرف Lecerf، ص ١٧٨ ؛ خير، ص ٤ ؛ الشميّل، **نشوء**، ص ٢٧.

[٢] **أعلام**، I، ص. ٢٩٠.

[٣] مراجعة **الهلال**، XXV / ١٩١٦، ص ٤٢٢ والتّالية، بعد موت جرجي زيدان في سنة ١٩١٤، ابنه إميل اهتمّ بإدارة **الهلال**. فكان بذلك مديرًا وكاتبًا خلال السنتين الأخيرتَين من حياة الشميّل.

[٤] **الكتاب التذكاريّ لجريدة البصير**، مرجع سابق، ص ١٠٢.

[٥] ينقل لنا شبلي الشميّل في **الحوادث**، أنّه كان لديه أخ أكبر منه، واسمه بشارة، وكان قد تعلّم في إنكلترا (مراجعة مقال الكاتب المُعَنْوَن **الشيخ ناصيف اليازجيّ وولده الشيخ إبراهيم**، السنة السابعة، القسم الأوّل، ١٥ تشرين الأوّل ١٩١٢).

[٦] خير، ص ٤.

[٧] واقية الساق، طِماق أي غطاء من اللبّاد للسّاق والحذاء.

[٨] خير، مرجع نفسه.

[٩] **مصادر**، II، ص ٤٩٨ ؛ مراجعة أيضًا **الهلال**، XXV / ١٩١٦، ص ٤٢٢ (مأخوذ من **البصير**، صحيفة ابن شقيق الشميل).

[١٠] مراجعة **الهلال**، المرجع نفسه، ص ٤٢٢.

[١١] زيدان، **مذكّرات**، ص ٧١ ؛ **أعلام**، ص ٣٠٣. لم تسمح الحكومة العثمانيّة بأن يُتقدّم من الامتحان النّهائي السّنوي في الجامعة الأميركيّة في بيروت الّا خلال فترة ادارة الدكتور هـ. هوارد س. بليسّ (١٩٠٢ – ١٩٢٠) (مراجعة **أعلام**، ص ٣٠٣)

[١٢] زيدان، **مذكّرات**، ص ٧١.

باريس لمتابعة دروسه الطّبيّة. ولم يتوجّه إلى إسطنبول إلّا بعد عامين وبضعة أشهر للتقدّم من امتحان الطّبّ النّهائي[١]. بحسب إميل زيدان، كان شبلي موجودًا في إسطنبول حوالي سنة ١٨٧٣. لكنّه يشير، في إحدى مقالاته، إلى أنّه كان فيها سنة ١٨٧٦. أضفْ إلى ذلك أنّه نشر فيها مقالين، الأوّل[٢] باللّغة الفرنسيّة، في ٢٥ تشرين الأوّل في **بريد الشرق** (١٨٧٦) الذي كان يصدر في العاصمة العثمانيّة، والآخر[٣] باللّغة العربيّة، وكان قد نشره في **الأهرام**. وهذا ما يجعلنا نعتقد أنّه لم يتوجّه فورًا إلى إسطنبول بعد تخرّجه من الجامعة، بل بعد انقضاء بعض الوقت على ذلك.

وهنالك نصّ لإيمي خير (ص ٣) يجعلنا نعتقد بالفعل أنّ شبلي، ولأسباب ماليّة وعائليّة، قد تردّد وانتظر لبعض الوقت قبل بلوغ أوروبّا من بعد تخرّجه من كلّيّة الطّبّ. وقد كتب صرّوف عن هذا الموضوع: "الكلّيّة[٤] خسرت الكثير لأنّها لم تحافظ على وجوده فيها، لأنّنا مقتنعون بأنّه كان سيتكرّس للأبحاث العلميّة، وأنّه كان سيصل إلى اكتشافات مثيرة للاهتمام"[٥]. غير أنّ مدير **المقتطف** يرثي، في مقال آخر من مجلّته[٦]، وضع العلوم في العالم العربيّ الذي لم يكن يسمح آنذاك بتدريب علماء حقيقيّين.

شبلي الشميّل في مصر

بحسب إميل زيدان[٧] وصحيفة **البصير**[٨]، كان على شبلي، بعد عودته من إسطنبول، إمضاء بعض الوقت في قريته الأمّ كفرشيما قبل التوجّه إلى وادي النّيل عن عمر خمسٍ وعشرين سنة[٩]. بحسب إيمي خير، عندما وصل إلى مصر، نزل من السفينة في الإسكندريّة حيث استقبله أخوه غير الشقيق ملحم، الممثّل لـ"وكالة الإخوة شميّل..."[١٠]. هناك كان موجودًا رشيد، ابن خليل، أخ شبلي الآخر غير الشقيق[١١]. وبعد يومين، لحق هذا الأخير بأخيه أمين إلى كفر الشّيخ[١٢]: "بحسب إيمي خير، كرّس حوالي الشهر مع العائلة قبل العودة

---

[١] **الهلال**، XXV /١٩١٦، ص ٤٢٢.

[٢] منشور باللّغة العربيّة في **المجموعة**، الجزء الثاني، بعنوان **ظواهر لا تُفسَّر**، المقالة الثامنة والأربعون، ص ٢٤٩– ٢٥٣. [وفي الحاشية رقم ١، على الصفحة ٢٤٩، يقول الشميّل إنّه نشره باللغة الفرنسيّة في جريدة "الكوريه دوريان" التي تُطبَع في الآستانة يوم كان في تلك المدينة، وقد ترجمَته إلى العربيّة ونشرَته مجلّة الطبيب التي تُطبَع في بيروت، ونشره هو في المجموعة، الجزء الثاني، **مباحث علميّة واجتماعيّة**، نقلًا عنها، لأنّه لم يحتفظ بالأصل الفرنسيّ].

[٣] **إنّ من العلم لسحرًا**، منشور في **المجموعة**، الجزء الثاني، المقالة رقم ٤٧ (ص ٢٤٨– ٢٤٩).

[٤] كلّيّة الطّبّ الأميركيّة.

[٥] **أعلام**، I، ص ٢٩١.

[٦] مراجعة عدد آذار ١٩١٧، ص ٢٢٥ – ٢٣١ وص ٢٦٦ – ٢٨٢.

[٧] مراجعة **الهلال**، المرجع نفسه، ص ٤٢٢.

[٨] **الكتاب التذكاريّ لجريدة البصير**، ص ١٠٢.

[٩] المرجع نفسه.

[١٠] ص ٥ ؛ **تراجم**، II، ص ١٨٢.

[١١] خير، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[١٢] أمين، أخو شبلي غير الشّقيق، كان قد انتدب ابن شقيقه رشيد لدعوة المؤلّف إلى اللحاق به إلى هذه القرية حيث كان يشتري القطن (خير، ص ١٥).

إلى الإسكندريّة حيث كان يأمل بتأسيس حياته المهنيّة"[١]. ولكن، ولأسباب بقيت غامضة، لن تطول إقامته فيها[٢]. ابتداءً من هذا الوقت، أصبحت المعطيات عن حياته نادرة ومتقطّعة، وسيرته صعبة جدًّا لمن يريد إعادة ترتيب الأحداث بحسب تسلسلها الزمنيّ.

إقامته في طنطا

مستسلمًا أخيرًا لإلحاح أمين، قرّر شبلي أن يستقرّ في طنطا، مكان سكن أخيه غير الشّقيق الذي وصل من ليفربول واستقرّ فيها[٣]. وقد أمضى فيها خمس سنوات بحسب إيمي[٤] خير وإميل زيدان[٥]، وستّ سنوات بحسب يوسف أسعد داغر[٦]. وهذه السنوات كانت "الأهمّ في مسيرته"[٧]، فقد سمحت له بتنفيذ اختباراته الأولى كممارسٍ للطّب[٨]. وهو يخبرنا بذلك في ذكرياته[٩]. كما يُعلِمنا أيضًا بأنّه كان يعالج خصوصًا الفلّاحين، هؤلاء الرّيفيّين الخشنين والفظّين الذين كانوا يرفضون أن يدفعوا له أتعابه، لانّهم كانوا يقولون إنهم لم يشعروا بأي تحسّن بعد المعاينة[١٠]. ومع ذلك فإنّ إقامته في طنطا كانت مُرْبِحة له، لأنّه اكتسب هناك شهرة واسعة. وقد تعدّى نشاطه إطار مهنته الطّبيّة، فكان يقوم بمراسلات متواصلة مع ألمع المفكّرين في العالم العربيّ في ذلك العصر. "وتطوّرت المراسلات مع ازدياد عدد معجبيه من أميركا وإسبانيا والعراق وفلسطين وسوريا ولبنان...". وقد أرسل، بحسب المصدر نفسه، صوره لأمين الرَّيحاني وجبران خليل جبران[١١]. من ناحية أخرى، يخبرنا بأنّ المهاجرين السّوريّين واللّبنانيّين في طنطا اختاروه ليمثّلهم في استقبال الخديوي إسماعيل. ومن المرجّح أنّه قد بدأ حياته الاجتماعيّة والعاطفيّة في هذه القرية أيضًا: استيقظ قلبه وترسّخ ذوقه بخصوص الجنس اللّطيف. أصله البورجوازيّ الذي اكتسبه من خلال عائلته كان يدفعه لذلك. في الواقع، كان حُسن الضيافة في بيت أمين مماثلًا لما كان عليه في بيت الشميّل في كفرشيما. تؤكّد ذلك إيمي خير[١٢] في ما يتعلّق بمصر، ورفاقه القدامى في لبنان يؤكّدون ذلك[١٣].

هذه الضّيافة، التي كانت تميّز بيت أمين في طنطا، ربّما تعود أيضًا الى الوسط الأرستقراطيّ الذي كانت تنتمي إليه زوجته فيرجيني جوفري (Virginie Geoffroy). هذه الأخيرة كانت ابنة القنصل الفرنسيّ شارل جوفري. بفضلها، وإلى حدٍّ كبير، أصبح بيت أمين

---

[١] خير، ص ٦.
[٢] المرجع نفسه.
[٣] خير، ص ١٧٦.
[٤] المرجع نفسه.
[٥] مراجعة **الهلال**، XXV / ١٩١٧، ص ٤٢٢.
[٦] **مصادر**، II، ص ٤٨٩.
[٧] خير، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[٨] المرجع نفسه.
[٩] **الحوادث**، تمّ نشر مقتطفات منها في **الهلال**، ص ٣٢ (١٩٢٤)، ص ٢٤ وما يلي.
[١٠] مراجعة **الهلال**، ص ٢٧.
[١١] خير، ص ٣١.
[١٢] ص ٦.
[١٣] رواية أحد الجيران القدامى لهذه العائلة في كفرشيما، واسمه فرحات ملحم فرحات.

صالونًا ريفيًّا حقيقيًّا[١]. ومن بين أصدقاء البيت تعرَّف شبلي الى السّيّد جوزيف دوماني وعقيلته[٢] التي سيتزوج لاحقًا بأختها الصغرى. وقد تعرّف أيضاً الى أخت أخرى لعفيفة دوماني[٣] أصبحت زوجة الدكتور بشارة زلزل، وهو طبيب معروف ومُعارِض لنظريّة التّطوّر. مشهد حياة الدكتور العالِم الكادحة المنظَّمة قد يكون أوحى له بتأسيس عائلة هو الآخر. محاولة خطوبة أولى باءت بالفشل. وبينما كان يرافق أخاه أمين الذي كان مسافرًا، على رصيف المحطّة، أُبهر بشابّة في الثامنة عشرة من عمرها، ألكسندرا حُوري، كان قد عرّفه إليها والدها. الوقت الذي أمضاه معها على الرّصيف كان كافيًا ليقدّر، لأقصى الدّرجات، صفاتها الفكريّة ومظهرها، وفكّرَ بالزواج منها. لكنّه وضع شرطًا أن تقبل بأن تكمل دراستها خلال فترة الخطوبة في دير فرنسيّ. آل حوري، الذين كانوا يسكنون في كفر الزيّات، وافقوا على الطّلب، ولكن الشابّة، التي اغتاظت من هذا الطلب الغريب، رفضت طالب الزّواج، والخطبة لم تتمّ[٤]. والحدث الغريب، الذي ذُكر لاحقًا والمتعلّق بهذه القصّة، "هو أنّ هذه الشابّة، بعد أن تزوّجت من رجل يونانيّ يُدعى أفييرينو (Aviérino) وطلّقته، أنشأت صالونًا أدبيًّا في القاهرة، ونشرت مجلّة[٥] سمحت لها بالتّعاطي بالسّياسة قبل الحرب من سنة ١٩١٤ وحتّى ١٩١٨"، "وقد تساءل شبلي، تُكمِل إيمي، ما إذا كانت هذه الدعوة التي ظهرت متأخّرة، ردًّا لغرورها المجروح من طلبه غير الظريف حين طلب يدها[٦].

الشميّل في القاهرة

خوفًا من الاضّطرابات الخطيرة التي نشأت نتيجة التمرّد الذي أشعله عرابي في عام ١٨٨٢، توجّه الريفيّون نحو المدن الكبرى. وقد اضّطربت عيشة آل الشميّل المريحة في طنطا. اضطرّ أمين وعائلته إلى ترك هذه المنطقة وكَفْر الشيخ ليستقرّوا في القاهرة. وبعد وقت قصير، سنة ١٨٨٥، لحق بهم شبلي واستقرّ هناك حتّى آخر حياته[٧]. ولكنّ مصيبة أخرى ضربت لاحقًا المصريّين، وهي الكوليرا. هذا الوباء أدّى إلى خسائر بين السكان، وإلى موت الآلاف من الفلّاحين[٨].

لحسن الحظّ خرج آل الشميّل سالمين من هذا الوباء. لم يكن الأمر سيّان بالنسبة للنظام الاقتصاديّ الذي اهتزّ من جرّاء تلك الأحداث. "الفلّاحون، بحسب إيمي خير، خرجوا من الوباء مفلسين نوعًا ما، وبالأخصّ مصمّمين على ألّا يدفعوا ديونهم، وهذا ما تسبّب بخسارة شركة الإخوة شميّل لحوالي الـ ٨٠٠٠٠ جنيه استرليني. الضربة أصابت أمين بشدّة، فهو المؤسّس والمدير، والتجارة تحت

[١] خير، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[٢] المرجع نفسه.

[٣] المرجع نفسه، ص ٧.

[٤] خير، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[٥] **أنيس الجليس**، تأسّست سنة ١٨٩٨.

[٦] خير، ص ٨.

[٧] المرجع نفسه.

[٨] وكان ذلك سنة ١٨٨٣ (مراجعة زيدان، **مذكّرات**، ص ١٠٢)

إشرافه"[1]. ولكنْ، "ولحسن الحظّ، تُكمِل إيمي خير، فإنّ أبناءه إدوار وماريوس وسليم، المتخرّجين من جامعة القدّيس يوسف في بيروت[2]، كانوا سيبدأون حياتهم المهنيّة"[3]. وأمين بدوره، مستفيدًا من دراسته القانونيّة، توصّل ليتمّ انتخابه نائبًا لنقيب المحامين في مصر. في بداية إقامته في القاهرة، ظلّ شبلي ساكنًا مع عائلة أخيه. العاصمة المصريّة كانت في خضم الفورة الأدبيّة، خصوصًا أنّ سياسة الخديوي إسماعيل كانت مشجّعة للآداب والفنون والعلوم. فكان المفكّرون اللبنانيّون يجدون هناك استقبالًا حارًّا. وكانوا ينكبّون على نشاطاتهم بكلّ حرّيّة. فتحمَّسَ شبلي لنشر أعماله التي كان قد ألّفها في الرّيف[4].

عائلته الجديدة

تزوّج شبلي في القاهرة بأرملة نجيب بولاد[5]، وهي الشقيقة الصغرى لعقيلة جوزيف دوماني، وكان قد التقى بها سابقًا في طنطا في صالون أخيه أمين[6]. كانت، بحسب إيمي خير، إمرأة شابّة نادرة الجمال؛ وكانت أرملة ولديها ثلاثة أولاد، ابنتان وصبيّ[7]. التاريخ الدقيق لهذا الزواج بقي مجهولًا. ولكن يبدو أنّه حصل بعد ١٨٩٨، لأنّه في هذا التاريخ، وفي صحيفة **الأخبار** المصريّة التي قدّمت وصفًا جسديًّا ومعنويًّا لشبلي، أظهرَتْه لنا كرجل في سن النّضج ولا يزال عازبًا. "إنّ عزوبيّته، بحسب الصّحيفة، هي على الأرجح العامل الأبرز الذي سمح له بإظهار مواهبه، محافظًا على فكره، محرَّرًا من كلّ الأعباء العائليّة، تاركًا له المجال للتفرّغ لكلّ المواضيع التي كانت تهمّه[8].

وبما أنّه لم يُرزَق بأولاد، اهتمّ شبلي بتربية أولاد زوجته. حتّى إنّه "غمرهم بالعاطفة التي حملها لهم كلّ حياته"[9]. هذه الشّهادة مثبتة في أيّامنا من قبل ابنتَي زوجته لويز وفينا (Fina). ولكنّ تأسيس هذا المنزل الجديد "كان له تأثير أوّل، بحسب إيمي خير[10]، بأنّه أثار لديه أسئلة لم يكن قد فكّر فيها، إذ كان منهمكًا باهتمامات أرفع". مسؤوليّاته العائليّة الجديدة، والتحرّر، ونمط الحياة العالي الذي كان يعيشه، خلقتْ له مشاكل مّاديّة كبيرة. وبما أنّه كان ينتمي إلى عائلة بورجوازيّة، وكان يعاشر الطّبقة الراقية المصريّة، كانت هنالك واجبات اجتماعيّة من الصّعب التملّص منها. ابنة زوجته "فينا" أخبرتنا بأنّه كان يعود إلى المنزل غالبًا ومعه مدعوّون دون إنذار زوجته،

---

[1] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[2] شيخو، **آداب**، II، ص ١٣٩ والتالية.

[3] خير، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4] المرجع نفسه، ص ٩.

[5] إنّها زنّوبيا نعمة الله بيطار، ابنة صاحب دخل في طنطا، من أصل سوريّ. زوجها الأوّل كان نجيب بولاد، وأصله من الشّام، حيث يوجد، بحسب فينا بولاد، حيّ معروف باسم حارة بولاد. وقد كان موظّفًا في الحكومة المصريّة في أيّام عبّاس حلمي (خير، ص ١٦).

[6] المرجع نفسه.

[7] وهم لويز وفينا وغبريال. وهذا الأخير مات عازبًا. رُزقت لويز بابن، ألبير ناصيف، وهو سفير لبنانيّ، وجوزيت (اليوم السّيدة غبريالي). وكل هذا مؤكّد من خلال أقوال فينا بولاد، وجوزيت بولاد.

[8] مقتطف من مقالة منشورة سنة ١٨٩٨ في الصّحيفة اليوميّة المصريّة **الأخبار** بتوقيع "أتوس" ومعنونة: **كتّاب العربيّة في مصر**، وهو منشور في **المجموعة** للشميّل، عدد رقم ٣٥، ص ٢١٢– ٢١٥ ، تحت عنوان **شواغل**.

[9] خير، ص ١٧.

[10] المرجع نفسه.

وكان من الواجب أن تكون طاولته دائمًا جاهزة لاستقبال عدد كبير من الضّيوف. علاوة على ذلك، فلقد كان مواظبًا على متابعة العروض المقدّمة من قبل فِرَق آتية من أوروبّا، وكان من النادر أن يحضرها بمفرده. وحين كان خلال فصل الصَيف يرسل عائلته للاصطياف في لبنان، كان هو يتناول الطّعام في نادي السيّارات[١].

وفضلًا عن ذلك فقد كان شغوفًا بلعب الورق، وهكذا لم يكن من الطبيعيّ أن يسمح له ولعه بإدارة ميزانيّته. قالت لنا "فينا بولاد" إنّه إذا لم يلعب في الخارج، بعد نهار مليء بممارسة مهنته وبنشاطاته الأدبيّة، كان يجتمع مساءً في منزله مع أصدقاء حول طاولة البوكر، وذلك بهدف الاسترخاء، بحسب ما كان يقول. ولكنّه كان في الغالب يلعب في نادي السّيارات. كان يتردّد على هذا النّادي الأمراء من العائلة المالكة، وكذلك النخبة الاجتماعيّة والسياسيّة في ذلك الوقت. وتؤكّد السيّدة خير ، بخصوص هذا الموضوع، شهادة "فينا بولاد"، وتذكر ناديًا آخر كان يتردّد عليه الشميّل. "أكثر ما كان يقدّره شبلي في ساعات الاسترخاء هو وجبة طعام لذيذة مصحوبة بدعابات فظّة، فالفكاهة على الطاولة أفضل مساعد على الهضم وكذلك... سهرة بوكر؛ هذه اللعبة المطابقة لذوق العصر كانت رائجة جدًّا في نادي محمّد علي"[٢]. ولكن إذا كانت سياسة التبذير هذه تحرم عائلة شبلي من الاستقرار الماليّ، فهي لم تكن تضعف شعلة حبّه السخيّ لمنزله[٣].

شبلي ومَيّ زيادة

في القاهرة تعرّف شبلي أيضًا إلى مَيّ زيادة[٤]. والد هذه الأخيرة، الياس زيادة، يخبر في جريدته **المحروسة**[٥] عن أوّل لقاء بينهما[٦]، وقد حصل في بيته، وكان شاهدًا عليه على الأرجح[٧]. بحسب قوله، فإنّ مَيّ لم تكن قد نشرت بعد سوى **أزهار حلم**[٨]. بما أنّه ما من تاريخ مُحدّد لهذا اللّقاء، فقد تمّ بعد شراء **المحروسة** من قبل والد مَيّ، في سنة ١٩٠٩، وتحديدًا بين ١٩١١، تاريخ نشر القصيدة المذكورة أعلاه، و٤ كانون الثاني ١٩١٣، تاريخ نشر التقرير عن لقائهما في **المهذّب**. هذه الصحيفة التي كان صاحبها الأب جورج كفوري،

---

[١] يقع في شارع مَناخ، في القاهرة. كان عبارة عن مطعم وصالة لعب.

[٢] خير، ص ١٦.

[٣] المرجع نفسه، ص ١٧.

[٤] (١٨٨٦ – ١٩١٠). اسمها الحقيقيّ هو ماري زيادة. لكنّها كانت توقّع باسم مَيّ، واحيانًا باسم إيزيس كوبيا (مراجعة جميل جبر، **مَيّ في حياتها المضطربة**، ص. ٣٨)

[٥] صحيفة يوميّة عربيّة مصريّة، أسّسها سليم النقّاش سنة ١٨٨٠، وقد اشتراها والد مَيّ (خير، ص ٢٦)، في سنة ١٩٠٩، بحسب جميل جبر (مراجعة المرجع السابق، ص ٣٠)

[٦] بحسب جميل جبر، هذا اللّقاء الأوّل تمّ في بكفيّا (مصيف لبنانيّ) (مراجعة المرجع السابق، ص ٩٥). لكنّ جبر لا يعطي أيّ مؤشّر دقيق. لكنّنا نميل إلى الوثوق بالياس زيادة في ما يتعلّق بمكان هذا اللّقاء بين الكاتبين، نظرًا إلى التفاصيل المحدَّدة التي يربطها بها.

[٧] بما أنّ أعداد **المحروسة** مفقودة في أيّامنا، فقد استطعنا الاطّلاع على المحادثات التي حصلت في ذلك اللّقاء، لا سيّما بفضل صحيفة **المهذّب** عدد ٤ كانون الثاني ١٩١٣ (ص ٤، أ، ب، ت)، وبفضل مجلّة **الهلال** عدد XXX / ١٩٢١، ص ٨١٥ – ٨١٧، والتقرير المقدّم من قبل لو سيرف عن **المهذّب** (مراجعة لو سيرف، ص ١٨٣)، وأخيرًا بفضل المعلومات الواردة في الكتاب غير المنشور لإيمي خير (ص ٢٧ والتالية) عن كاتبنا، معلومات لم تأتِ على ذكر مصادرها. لكنّنا نعتقد انّ خير قد أتت بها من **المحروسة**، كما هو الحال على الأرجح مع **المهذّب** و**الهلال** اللّذين لم يكن لديهما مصدر آخر، بما أنّ صاحب **المحروسة**، الياس زيادة، هو الوحيد الذي حضر لقاء الشميّل بابنته مَيّ.

[٨] خير، [إنّه ديوان شعر بالفرنسيّة منشور سنة ١٩١١، مهدًى إلى الشاعر الفرنسيّ لامارتين، وموقّع] باسم إيزيس كوبيا. وبعد نشر هذا الكتاب، نُصحت مي بتعلّم اللّغة العربيّة. سوف تتحسّن لغتها، وتبدأ بنشر مقالات في صحيفة **المحروسة**، موقّعة باسم مَيّ، مختصر لاسم ماري، وقد عُرفت باسم مَيّ (مراجعة **البصير**، **الكتاب التذكاريّ**، المرجع نفسه، الصفحة نفسها، ص ١٠١)

وهو من المعجبين بالشميّل ومن أصدقائه، ستتابع عن قرب النّشاط الأدبيّ لهذا الأخير وستهتمّ بأن تنشر له، يومًا بعد يوم، أخبارًا أو مقالات. فمن الطبيعيّ إذًا أن تُروى أحداث يومٍ كهذا، ٤ كانون الثاني ١٩١٣، وقد تمّ فيه أوّل لقاء للكاتب بمَيّ زيادة.

والدليل الآخر الذي لا يقل وضوحًا هو نشر لو سيرف، في مساهمته بالكتابة عن الشميّل[١]، لرسالة شخصيّة من مَيّ، بتاريخ حزيران ١٩١٥، تقول له فيها: "الدكتور كان صديقًا رائعًا خلال السّنوات الثلاث الأخيرة من حياته، وواحدًا من أوائل الذين شجّعوني في بداياتي." وبما أنّ موت الشميّل حصل في آخر سنة ١٩١٦، تكون مَيّ قد التقت به لأوّل مرّة خلال سنة ١٩١٣ وتحديدًا قبل ٤ كانون الثاني من السنة عينها. كانت مَيّ حينها تدرس اللّغة العربيّة تحت إشراف لطفي باشا السّيد[٢]. قبل أن تلتقي بشبلي، كانت قد قرأت له مقالة[٣] اكتشفت من خلالها عدم ثقته بالجنس اللّطيف[٤]. اللّقاء المرغوب فيه بشدّة من قبل الطّرفين، بحسب الياس زيادة، قد قرّب، كما قيل، وجهات نظرهما في ما يخصّ هذا الموضوع. يبدو أنّ مَيّ قد عاتبت الطّبيب على مفهومه الخاطئ للمرأة. أمّا هو فقد أُعجب بشخصيّة الشّابّة وشعر بخطورة هذا الاتّهام، فحاول أن يُطمئنها على حسن نواياه، ولتحقيق ذلك، يكون قد لجأ الى الشعر، بحسب إيمي خير[٥]، هذا النّوع الأدبيّ الذي كانت تحبّه مَيّ. وقد استعمل كلّ تعابير التقرُّب، بحسب الياس زيادة، ليكسب رضاها:

- "كنتُ أرغبُ، منذ وقت طويل، بأن التقي بكِ، يقول الشميّل.
- وأنا كنت أبادلك هذه الرغبة، أجابته مَيّ، لكنّني أخاف منك.
- تخافين منّي؟ ولماذا؟
- لعدّة أسباب وأهمّها أنّك تكره النّساء وانّك مادّيّ، بينما أنا شاعرة ذات ميول روحيّة."

بحسب **المهذّب**[٦]، كانت مَيّ راضية باكتشافها "أنّ هذا الرجل العظيم متعاطفٌ مع أفكارها وليس معارضًا".

قالت له في النّهاية: "أنت شاعر بقدر ما أنت عالِم". في اليوم التالي أرسل لها الطّبيب قصيدة [بالفرنسيّة] أثّرت فيها، وأثارت أبياتها الشعريّة شغفها. وقد ردّت عليه بثلاث مجموعات من عشر أبيات مكتوبة باللّغة الفرنسيّة تحت عنوان "المصالحات الكئيبة" والتي نشرتها أيضًا مجلّة **المهذّب**[٧].

---

[١] ص ١٥٤، عدد رقم ٥.

[٢] خير، ص ٢٦ – ٢٧.

[٣] المرجع نفسه، ص ٢٧.

[٤] لو سيرف، ص ١٨٣ ؛ **المهذّب**، ٤ كانون الثاني ١٩١٣، ص ٤ ؛ خير، ص ٢٧.

[٥] ص ٢٧.

[٦] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[٧] المرجع نفسه، الصفحة نفسها ؛ خير، ص ٢٨. [يُراجَع بعض هذه القصائد المتبادَلة بين الشميّل ومَيّ في مؤلَّف جورج هارون، ص ٦٣– ٦٥].

نشرت **المهذّب**[١] قصيدة أخرى للشميّل مهداة لمَيّ تحت عنوان **إلى الشّاعرة إيزيس**. والصّحيفة نفسها نشرت أيضًا، في الصفحة إيّاها، جواب مَيّ بأبيات شعريّة فرنسيّة أكثر جرأة حيث كان يبدو فيها تهكّم ومضايقة لكاتبنا، وفي الوقت عَينه تعلن فيها نواياها البريئة[٢].

هذه المراسلات الأدبيّة استمرّت لفترة من الوقت كانت مَيّ خلالها مهتمّة أيضًا بقراءة مؤلّفات الفلاسفة الذين كان ينصحها بهم: نيتشه، وكانط، وشوبنهاور، وداروين[٣]. بحسب إيمي خير، ابتداءً من هذا اللقاء بمَيّ، شارك شبلي أكثر بالشؤون الأدبيّة؛ وراح يكتب غالبًا أبياتًا شعريّة باللّغتَين العربيّة والفرنسيّة[٤]. لقد كان منبهرًا بذكاء الشّاعرة وبشجاعتها[٥]، وكان راضيًا عن قدرتها "على فهمه ومتابعته في أفكاره الشّاقّة"[٦]. السيّدة خير تخبرنا[٧] بأنّه كان يرسل كتاباته للشّاعرة فور انتهائه من التأليف. وراح يمتنع عن لعب الورق، الذي كان عزيزًا جدًّا عليه، ليمضي أوقات فراغه في صالونها الأدبيّ الذي كان واحدًا من ركائزه لعدّة أعوام، وهذا الصالون كان معتبرًا في ذلك الوقت الصالون الأهمّ والأكثر شهرة في مصر[٨].

الشميّل وجمال الدّين الأفغاني

في القاهرة، تعرّف الشميّل أيضًا على جمال الدين الأفغاني الذي سيخصّص له لاحقًا مقالة نُشرت سنة ١٩١٢ في مجلّة **الزّهور**، وأُعيد نشرها في **الحوادث**[٩]. وكان قد سمع عنه للمرّة الأولى حين كان يسكن في الإسكندريّة. ومنذ أن جاء جمال الدين إلى مصر، شعر الشميّل في الواقع بالرغبة في مقابلته. فأعطاه جمال الدّين موعدًا في منزله. "حين تعارفنا، تكلّمنا بمواضيع مختلفة، ثمّ طَرَحْتُ عليه بغتةً السؤال التالي: "ما رأي شيخنا في الكائن الأوّل الذي عبده الإنسان من بين أمور هذا العالم؟" يقول شبلي: "بدا لي أنّ سؤالي قد أخذه على حين غرّة، كما لو أنّه لم يفكّر فيه من قبل. تردّد لبرهة، كما لو أنّه كان يريد تصحيح موقفه، ثمّ دخل في ديباجة طويلة، معطيًا لنفسه بهذه الطريقة بعض الوقت للتّفكير بالجواب. رجل مثله لم يكن بحاجة للتفكير لوقت أطول، بسبب سرعة الخاطر عنده وذكائه الحادّ". الموضوع لم يكن سهلًا، نظرًا لطبيعة السؤال المطروح. ماذا كان ممكنًا أن يكون أوّل معبود للإنسان قبل ظهور الأديان الموحى بها؟ للإجابة على هذا السّؤال، يجب الاستناد إلى معلومات واسعة تاريخيّة، وأخرى عن عصور ما قبل التاريخ، واللّجوء إلى علم الإنسان والأنثروبولوجيا الوصفيّة، وعلم الآثار.

---

[١] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[٢] الرجع نفسه، الصفحة نفسها ؛ خير، ص ٢٨.

[٣] خير، ص ٢٧.

[٤] المرجع نفسه.

[٥] المرجع نفسه، ص ٢٨.

[٦] شبلي يعني بالعربيّة "أسدي الصغير". لكن يبدو أنّ إيمي خير قرأت كلمة شبل (المرجع نفسه).

[٧] ص ٢٧.

[٨] المرجع نفسه، ص ٢٦ و٣٠. كان هذا الصالون في منزل آل زيادة، أهل مَيّ، والاجتماعات الأدبيّة كانت تُعقد فيه عمومًا كلّ ثلاثاء (المرجع نفسه).

[٩] جمال الدين الأفغاني، في **الزّهور**، القاهرة، السنة الثالثة، كانون الأوّل ١٩١٢، ص ٤١١ وما يلي.

متذكّرًا أنّ محاوره قد أنهى حديثه بهذه الكلمات: "الكائن الأوّل هو بين الغيوم وربّما هو الغيوم بحدّ ذاتها..."، لا يخفي الشميّل خيبة أمله، هو الذي كان يعتقد أنّ الأفغاني ملحد، وكان يأمل أن يناقش معه تخمينات فلسفيّة ومادّيّة. "أما بالنّسبة لي، يكتب الشميّل، فأعتبرُ أنّ الانسان غارق أكثر في الطبيعة الحيوانيّة؛ أتخيّلُ الإنسان الأوّل مُنحنيًا نحو الأرض، متعثّرًا، خائفًا من كلّ شيء لأنّه كان يجهل كلّ شيء. وقد ألّه إحدى الكائنات التي كان يراها، ونظره لم يرتفع فوق الأرض إلّا لاحقًا." التلميح إلى النظرية التطوّريّة واضح، وهو أنّ الإنسان من أصل حيوانيّ. يستخلص الشميل من الجواب الاستنتاجات التالية:

١- لم يكن الأفغاني غائصًا في تاريخ الدّيانات، لذلك لم يكن يستطيع إعطاء إجابة صالحة.

٢- حين كان يواجه سؤالًا خارجًا عن مجاله، أو يتخطّى حدود اختصاصه، كان يلجأ إلى الأدب. وديباجته الطويلة، التي كانت أدبيّة أكثر ممّا هي علميّة أو فلسفيّة، برهان كافٍ على ذلك.

مع ذلك ، ولتأكيد تفوُّقِهِ الفكريّ على المفكّر الأفغاني، يعترف الشميّل بأنّ هذا الأخير "كان ذا قدرة استيعاب مدهشة، يستفيد من أيّ عنصر جديد يجده عند محاوره؛ فيعيد تعبيره بشكل يوحي بأنّه يعرفه وقد استوعبه مسبقًا، فيعطي هكذا الانطباع بأنّ ذلك مألوف لديه منذ وقت طويل. جمال الدّين كان من أبرز رجال عصره. كان عالِمًا، على اطّلاع تامّ على العلوم وفلسفة القدامى، متمتّعًا بذكاءٍ حادّ وصاحب ثقافة استثنائيّة. وكانت عنده جرأة في الآراء لا نجدها إلّا عند النّفوس النّبيلة والمستقلّة. حديثه كان ممتعًا فلا يُملّ من الاستماع إليه. كان يتكلّم لغة مُختارة وصحيحة، مع لهجة خفيفة غريبة تعود لأصله، ولكنّها لطيفة على السّمع. كان يتمتّع بنظرة رائعة، وعينين سوداوين غائرتين قليلًا في محجرهما، متلألئتَين بالذكاء."

ولكن هنالك عاملًا آخر، لا يقل أهميّة عن الأوّل، يثير إعجاب الشميّل تجاهه: وهو فكره الثوريّ، وموقفه تجاه الشعوب المقموعة. اكتشف الشميّل عنده هذا الفكر المتحرّر خلال خطاب ألقاه في مسرح زيزينيا[١]، في تشجيع للكاتب الثوريّ اللّبنانيّ أديب اسحق، بحضور حشد كبير يتضمّن وجهاء سوريّين ومصريّين من الجنسين. وكان الموضوع الاستبداد واستعباد الشّعوب؛ وقد استمتع الشميّل بشكل خاصّ بهذه العبارات: "وكأنّ الناس ليسوا بشيء، والملك هو كلّ شيء؛ إذا وقف عليهم أن يقفوا، وإذا جلس عليهم أن يجلسوا"[٢].

والأفغاني، بحسب ما يرى الشميّل، وَجّهَ للحشد خطابًا اجتماعيًّا وسياسيًّا استثنائيًّا، مضمونًا وشكلًا وشجاعةً. "لقد ارتجل لمدّة ساعتين على التّوالي بلا أيّ مؤشّر تعب، وبلا أيّة صعوبة في التعبير، لدرجة أنّه أبهر المستمعين إليه وأثار حماسهم. وكأنّه كان يأسرهم بكلماته، وأنّهم لعبة بين يديه"[٣]. هذا لا يمنع أنّ كاتبنا قد تعجّب حين عرف بأنّ المفكّر الأفغاني قد كتب رسالةً دحَض فيها النظريّة

---

[١] مسرح في القاهرة، كان في وقت الشميّل.

[٢] مراجعة **الزّهور**، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[٣] المرجع نفسه، ص ٤١٦.

المادّيّة، واستخلص أنّه ينتمي إلى مدرسة الفلاسفة القديمة. لم تكن المبادئ النظريّة وفلسفته التجريديّة تسمحان له بمعالجة الأسئلة بطريقة علماء الطبيعة الذين كانوا يعتمدون على العلوم الحديثة. وكان من غير الممكن تصنيفه مع الارتيابيّين، كالمعرّي، الذين بالرغم من نفيهم للنبوءة، يتردّدون حول موضوع أبديّة العالم. هؤلاء، بما أنّهم غير قادرين على إثبات آرائهم بأدلة علميّة، إلّا إذا كانوا انتهازيّين ونفعيّين، مُكَيِّفِين معتقداتهم مع ما يفضّله العصر، يتقرّبون تارةً من الملحدين وطورًا من المؤمنين.

امّا بالنسبة للشميّل فمن الصعب عليه أن يعبّر عن رأيه بما يتعلّق بجمال الدّين، إلّا أنّه يميل جديًّا للاعتقاد بأنّه لم يكن مؤمنًا[١].

زيارته للبنان سنة ١٩٠٩

كما ذكرنا سابقًا[٢]، قد يكون الشميّل حُكم عليه بالإعدام من قبل السّلطان عبد الحميد، ولم يحاول العودة إلى لبنان إلّا بعد موت هذا الأخير[٣]. يخبر شبلي في مذكّراته في **الحوادث**[٤] أنّ سياسة الدّولة العثمانيّة كانت سبب هجرته من لبنان. كتب قائلًا: "أوّل فكرة خطَرَت ببالي عند وصولي إلى مصر الفرق الهائل بين الحكم المصريّ وحكم إسطنبول، وهذا سبب هجرتي من بلاد الشام، مُقسِمًا بألّا أعود إلّا اذا تحسّنت الحال. "تُحدِّد إيمي خير، في هذا الشأن، أنّ عريضة الشميّل التي وجّهها للسلطان عبد الحميد، والمُعَنْوَنة **شكوى وآمال**[٥]، كانت السبب في ذلك[٦].

هذه الزيارة إلى لبنان من المفترَض أن تكون قد تمّت في صيف سنة ١٩٠٩، بعد غياب أربعين سنة لم يَزُرْ خلالها وطنه سوى مرّتين، لبضعة أيّام فقط. وكانت الزيارة السابقة تعود إلى سبع وعشرين سنة[٧]. وقد خصّه اللّبنانيون باستقبال شديد الحرارة، فحلَّ ضيفًا على عناصر عدّة من المجتمع اللبنانيّ. "لم يكن هناك، بحسب إيمي خير، صاحب فندق أو قهوة أو شحّاذ ليقبل منه أيّ قرش"[٨]، لأنّه كان معروفًا في أرض أسلافه بكتاباته وأفكاره.

---

١ المرجع نفسه. ص ٤١٧.

٢ ص ٣٤. مراجعة، الفصل الأوّل [من مؤلَّف هارون]، ص ٢٦.

٣ تؤكّد فينا بولاد أنّ شبلي لم يستطع المجيء إلى لبنان إلّا بعد موت عبد الحميد، واستلام تركيا الفتاة الحكم. وتضيف أنّه أتى بمفرده، تاركًا زوجته وأولاده في القاهرة. [ولا بدّ من الإشارة هنا، وعلى خلاف ما يذكره هارون من أنّ حكم الإعدام بحقّ الشميّل غير مذكور في أيٍّ من المصادر الأخرى (هارون، ص ٦٩)، فإنّه مؤكَّد بموجب البيان الذي "أذاعه السفّاح جمال باشا في ٢١ آب ١٩١٥ يوم إعدام القافلة الأولى، ولكنّه لم ينشره في كتابه الأحمر، فكاد يجهله العاملون في تدوين تلك المرحلة الخطيرة من بعثنا القوميّ". وهذا البيان منشور في مجلّة أوراق لبنانيّة تحت عنوان: "منشور القائد الكبير"، ويُراجَع نصّه في: يزبك، يوسف إبراهيم، مجلّة أوراق لبنانيّة، المجلّد الثاني، الحازميّة– لبنان، دار الرائد اللبنانيّ، ١٩٨٣، ص ٢٠٥–٢٠٨. واسم "الدكتور شبلي شمّيل" وارد على الصفحة ٢٠٦ من المجلّة. ويُشار إلى أنّ البيان سبق نشره في جريدة البلاغ البيروتيّة، العدد ٣٦١، الصادر يوم السبت ١٠شوّال ١٣٣٣ هـ/٢١ آب ١٩١٥.

٤ مراجعة **المقتطفات المنشورة في الهلال**، XXIII / ١٩٢٤، ص ١٣٧ – ١٤٢.

٥ القاهرة، **معارف**، ١٨٩٦، (مراجعة داغر، **مصادر**، II، ص ٤٩٦).

٦ خير، ص ١٨ – ١٩.

٧ مراجعة كلمة الشّكر في [أوّل الجزء الثاني] من المجموعة [**مباحث علميّة واجتماعيّة**]، ص ج. [وهذه الكلمة] مُوجَّهة من الشميّل إلى الأصدقاء والمُعجبين الذين ساهموا في نشر كتابَيه: **فلسفة النشوء والارتقاء** [الجزء الأوّل من المجموعة]، **ومباحث علميّة واجتماعيّة** [الجزء الثاني منها].

٨ خير، ص ٣٤.

"لو كانت الفرصة قد أُتيحت له، بحسب صرّوف، لزيارة المهاجرين في بلاد الشّام، في أميركا الشّماليّة أو الجنوبيّة وفي إفريقيا الجنوبيّة وفي أوستراليا وفي نيوزيلندا أو في اليابان، لكانوا اعتبروه جميعهم، أينما كان، أهمّ فيلسوف أنتجته بلاد الشّرق"[١].أمّا في ما يتعلّق بعاطفته لوطنه الأم فتصفها لنا إيمي خير بهذه الكلمات: "يركض إلى كفرشيما، يقبّل أرضها، ينحني على مقابر أحبّائه، يحاول أن يستذكر الموتى الأحبّاء، وأن يغطس مجدّدًا في الأجواء العائليّة"[٢].

يقول لنا: "لقد غُمِرْتُ بالمعروف، ولن أنسى أبدًا هذا الأمر". يخبرنا[٣] بأنّ المتعاطفين والأصدقاء قد شجّعوه على جمع كتاباته المبعثَرة في الصّحف والمجلّات، وعلى نشرها في مجموعة من عدّة أجزاء. وقد اقترحوا عليه[٤] المشاركة في تكاليف النشر من خلال التبرّع. وقد أُنجز هذا المشروع، ونشر الشميّل، في حاشية في [أوّل] كتابه **المجموعة** [الجزء الثاني، **مباحث علميّة واجتماعيّة**] قائمة من المنظّمين الرئيسيّين: "الخوري بولص الكفوري"[٥]، و"الدكتور أيّوب تابت"[٦]، و"الخواجا أمين وهبة كرم"[٧]. وكان المانحون وجهاءَ من بيروت، وجبل لبنان، وغانا، ومصر، والإسكندريّة، وحلب، والمنصورة، وطنطا. وتظهر أسماء سُرسُق، وبُسترُس، وطراد، وتويني، وجريديني، وقرداحي، وصيقلي، وأرقش، وحوري، وكرم، وفرعون، ودهّان، وجدعون[٨]. وبما أنّه لم يكن يريد أن يظهر أقلّ كرمًا منهم، يخبرنا في حاشيته بأنّه وزّع مجّانًا ثلاث مئة نسخة لرجال الأدب وللطلّاب في سوريا ومصر، من الذين لم تكن حالتهم المادّيّة تسمح لهم بدفع ثمن الكتاب، بحيث حصلت سوريا على نصف عدد المجموعات الموزّعة. ولكن، وبما أنّ الجزء الثاني لم يكن تتمّة للأوّل، فمَن حصل على أحدهما لم يكن يحقّ له الحصول على الآخر. وقد اتّخذ الكاتب هذا الإجراء من أجل انتشار أوسع للمجموعة، ومن أجل تعميم الفائدة.

عودته إلى مصر ونشاطه السياسيّ

بعد عودته من لبنان، فكّر شبلي، بحسب إيمي خير، بتأسيس حزب سياسيّ بالتّوافق مع تركيا الفتاة للمساعدة في إنهاض لبنان وسوريا". ولكنّه صرّح بنفسه، سنة ١٩٠٨، أنّه لم يقبل أبدًا بأن يكون عضوًا عاديًا في أيّة جمعيّة، حتّى ولو كان يوافق على مبادئها، لأنّه لم يكن يريد أن يتنازل عن حرّيّته في الكلام والأعمال. ولكن ما كان يعيق انخراطه الرسميّ في الأحزاب السياسيّة لم يعد يشكّل عقبة بعد خمس سنوات

[١] مراجعة **أعلام**، I، ص ٢٩٢.

[٢] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[٣] خير، المرجع السابق ، تُراجَع أيضًا كلمة الشكر في [أوّل الجزء الثاني من **المجموعة، مباحث علميّة واجتماعيّة**، ص ج- هـ].

[٤] هذا الاقتراح أكّدته المجلّتان العربيّتان الكبيرتان: **المقتطف، والهلال**. هذه الأخيرة تقول إنّ الهدف من هذا الطرح كان الاحتفاظ بكتابات الشميّل لأجل فائدتها (مراجعة **المقتطف**، XXXVI / ١٩١٠، ص ٣٦، و**الهلال**، XVIII / ١٩٠٩ – ١٩١٠، ص ٥٦٥.)

[٥] صديق الشميّل وصاحب مجلّة **المهذّب**.

[٦] الرئيس المستقبليّ للجمهورية اللّبنانيّة (١٨ شباط – ٢١ تموز ١٩٤٣).

[٧] من وجهاء لبنان، كان مُقيمًا في الإسكندريّة في أيّام الشميّل.

[٨] مراجعة هذه القائمة في [أوّل] **المجموعة** [الجزء الثاني، **مباحث علميّة واجتماعيّة**]، ص د–هـ].

في الواقع، سنة ١٩١٣، أطلق نداءً باسمه وباسم الكاتب العثمانيّ رفيق باي العظم لمجموعة عثمانيّة مقيمة في مصر، من أجل اجتماع في منزله. وهناك تمّ توزيع بيان عن حزب " اللامركزيّة العثمانيّة"، مع برنامج لهذا الحزب. وقام كلٌّ من رفيق باي، والشميّل، بإلقاء خطاب ذكّرا من خلاله المستمعين بالمخاطر التي تتعرّض لها الأمبراطوريّة العثمانيّة، ورغبة الدولة والشعب في إجراء الإصلاح. وكان الخطيبان متّفقَين على أنّ المال هو عامل أساسيّ لكلّ نجاح. وللحصول عليه وجّها نداءً إلى سخاء المواطنين. نوقشت تنظيمات الحزب، واللجنة الإداريّة فيه. طُرحت أسئلة، ودفع أحد الموجودين اشتراكًا بقيمة ٢٠ ليرة. وتفرّق الجمع بعدئذٍ لأخذ وقتهم في قراءة برنامج الحزب، وبيانه، قبل إرسال ملاحظاتهم إلى أعضاء اللّجنة الإداريّة[١].

واهتمّ شبلي أيضًا، عند عودته من لبنان، بتأسيس مستشفى. ولذلك باشر بدعاية كبيرة، وتوجّه إلى أشخاص أغنياء ووجهاء، ودعاهم لمشاركته[٢]. ولم تنفّذ الفكرة، ولم يرَ مستشفى "دار الشّفاء" النور إلّا بعد وفاته[٣].

من سنة ١٨٩١ ولغاية سنة ١٩١١، لم يتوقّف الشميّل عن نشر مقالات في مختلف الصّحف والمجلّات العربيّة في مصر، في حين كان يتابع مزاولة الطّبّ. ومن بين هذه الصحف يمكننا ذكرُ: **البصير**[٤]، **والأخبار**[٥]، **والمؤيّد**[٦]، **والمُقطَّم**[٧]، **والجريدة**[٨]. ومن بين المجلّات يقتضي ذكرُ: **الهلال**، **والمقتطف**، **وفتاة الشّرق**، **والزّهور**. ومن جملة الأمور التي كان يعالجها (sujets d'actualité) مواضيع الحاليّات، ومشاكل التّعليم[٩]، وعلم حفظِ الصحّة[١٠]، والفلسفة[١١]، والصّحافة[١٢]، وعلم الاجتماع[١٣]. وخلال صيف ١٩١٢، خصّص وقتَ فراغه لكتابة مذكّراته. ولكنْ، وفي الوقت الذي كان يعمل فيه على ذلك، اندلعت حرب البلقان[١٤].

---

[١] مراجعة **المهذّب**، عدد السبت ٢٢ شباط ١٩١٣، ص ٦.

[٢] خير، ص ٣٥.

[٣] خير، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[٤] صحيفة عربيّة مصريّة، أسّسها في ١ أيلول ١٨٩٧ رشيد الشميّل ابن شقيق شبلي الشميّل.

[٥] جريدة يوميّة مصوّرة، تأسّست في القاهرة في ٢٤ نيسان ١٩١٩.

[٦] جريدة عربيّة في القاهرة، أسّسها سنة ١٨٨٧ أحمد ماضي وعلي يوسف.

[٧] جريدة عربيّة فيالقاهرة أسّسها، في ١ كانون الثاني ١٩٠٩، يعقوب صرّوف وفارس نمر وسليم مكاريوس.

[٨] صحيفة عربيّة مصريّة، أسّسها في ٩ آذار ١٩٠٧ أحمد لطفي السّيّد.

[٩] مثل المقالَتَين الحاملتَين الرقمَين ٤٠ و٤١ في كتابه **المجموعة** [الجزء الثاني].

[١٠] مثل المقالة الحاملة الرقم ٣٧ في كتابه **المجموعة** [الجزء الثاني].

[١١] مثل مقال **الحياة وأصلها** [المقالة الثالثة، الجزء الثاني].

[١٢] مثل المقالَتَين الحاملتَين الرقمَين٤٤ و ٤٥ في كتابه **المجموعة** [الجزء الثاني].

[١٣] مثل المقالة الرابعة من كتابه **المجموعة** [الجزء الثاني]، المعنونة **الاجتماع البشريّ أو العمران**.

[١٤] مراجعة **الهلال**، XXV / ١٩١٧، ص ٧٢٦.

أسفاره إلى أوروبّا

خلال إقامته في مصر، سافر الشميّل عدّة مرّات إلى أوروبّا، خصوصًا إلى فرنسا وألمانيا. وكان تطوُّر الطّب في الغرب يدفعه للاتّصال المباشر بأسياد هذا العلم، وكذلك بالعلماء الآخرين الذين كانوا يقومون بتجارب بيولوجيّة في مختبراتهم. وهنالك معلومة نُشرَت في **المقتطف**[١] سنة ١٨٨٩ تشير، في هذا الشأن، إلى أنّه انتقل من مصر إلى باريس خلال تلك السنة، لحضور مؤتمر العلماء والأطبّاء، وللاستفادة من خبراتهم. وبدعم ماليّ من الحكومة المصريّة، قام برحلة ثانية إلى أوروبّا في السّنة التالية (١٨٩٠)، بمناسبة اكتشاف عصية السلّ من قبل كوخ، هذا الاكتشاف الذي "كان له وَقْعٌ عالميّ"؛ ممّا دفع بعدد كبير من الأطبّاء من كلّ بلدان العالم، الطامعين بدراسة نتيجة تلك التجربة السريريّة، للتوجُّ إلى المانيا للهدف نفسِه[٢].

شبلي أثناء الحرب العالميّة الاولى

خلال أحداث البلقان، كان الكاتب يأمل بظهور عصر جديد بفضل تدخّل أوروبّا[٣]، وخصوصًا أفراد الشّعب والعلماء الألمان. لكنّ الحرب من ١٩١٤ وحتّى ١٩١٨ قد خذلته، خصوصًا أنّه كان يعتبر القيصر[٤]، والطبقة العسكريّة التي كانت تدعمه، المسؤولَين عن ذلك. "هذه الحرب هي حماقة، بحسب شبلي. فلو أنّ ألمانيا عرفت كيف تنتظر لكانت ربحت العالم"[٥]. وقد رفع صوته مرارًا ضدّ الشرور والفظائع التي كان يسبّبها هذا الصراع العالميّ[٦]. والرسالة المفتوحة التي وجّهها في هذا الشأن لإرنست هيكل هي مثال على ذلك. وقد أقرّ النّشوئيّ الألمانيّ، مع مجموعة مؤلّفة من ثلاثة وتسعين عالِمًا، بالجرائم التي ارتكبتها حكومتهم. تتضمّن رسالة الكاتب ملامةً وانتقادًا قاسيًا. لم يكن يُصَدِّق أنّ معلّمي الفلسفة النشوئيّة قد استطاعوا الاستسلام للجذب الأعمى الذي أثاره النظام العسكريّ المطلق. ويستنتج قائلًا: "بروفسور هيكل، أستمرُّ في الاعتقاد أنّك لم توقّع." ولكن يبدو أنّه نسيَ أنّ نظريّة "الكفاح من أجل الحياة" لداروين قد تحوّلت مع نيتشه إلى نظريّة "الكفاح من أجل السلطة"، وأنّ هذه الأخيرة تتعارض مع الأولى. وقد اعترف شبلي أنّه لطالما أهمل أيضًا آثار فلسفة "نيتشه غير المُتَّسِق".

منذ اللّحظة الأولى وقف شبلي إلى جانب الحلفاء. ويظهر هذا الميل في عدد من قصائد الهجاء المتعلّقة بالسّياسة، وكذلك في صحيفة **البصير**. ومن المحتمل أن يكون هذا الموقف ناتجًا، من بين جملة أمور، عن مسؤوليّة ألمانيا في اندلاع الصراع. كما أنّه من الممكن أن يكون سببه مشاركة تركيا – التي كان يعاني منها بلده – في الحرب، إلى جانب الألمان. وكان قد علمَ، في الواقع، عن وضع

---

[١] XIII/ ١٨٨٩، ص ٧٨٢.

[٢] خير، ص ١٥.

[٣] مراجعة تعقيب لو سيرف (ص ٢٠٩ – ٢١٠) على كتاب الشميّل، **مساوئ الهيمنة التركيّة ومسؤوليّة أوروبّا**. [وللمزيد حول هذا الكتاب يُراجَع مؤلّف هارون، ص ٩٨].

[٤] ڤيلهلم الثاني أو غليوم الثاني (١٨٥٩ – ١٩١٤)، ملك بروسيا وقيصر ألمانيا (١٨٨٨ – ١٩١٨)، حفيد غليوم الأوّل دو هوهنتسولرن، وُلِد في برلين. بعد الحرب العالميّة الأولى تنازل عن العرش، ولجأ إلى هولندا.

[٥] مراجعة تقرير أَعدَّهُ لو سيرف (ص ٢١٠ – ٢١١) عن **رسالة الدكتور شبلي الشميّل للسيّد إرنست هيكل**. [وللمزيد حول هذا الكتاب يُراجَع مؤلَّف هارون، ص ١٠٢].

[٦] خير، ص ٣٨.

اللبنانيّين البائس، "المسحوقين تحت نير الأتراك". واتّهم هؤلاء بترتيب نفس مصير الأرمن لأبناء بلده، واستئناف سياسة عبد الحميد تجاه الأقليّات الدينيّة[١]. وبعد أن عرف أيضًا بوضع لبنان البائس "المقفل والمعزول والجائع"، حيث تُعدّ الضحايا بالآلاف[٢]، ألقى نداءً للمغتربين اللبنانيّين المقيمين في أميركا، وللرئيس ولسون بالذات. وتخبرنا إيمي خير أنّ جواب هذا الأخير جعله ينفجر بالبكاء[٣]. وحكومة العالم الجديد أرسلت هي أيضًا إلى لبنان، بحسب فينا بولاد[٤]، قوارب محمّلة بالقمح، بهدف مساعدة سكّانه الذين كان عدد كبير منهم محرومًا من الطّعام. وقد نشر شبلي، وهو لا يزال تحت تأثير الحرب سنة ١٩١٥، روايته التمثيليّة **المأساة الكبرى** بهدف إثبات النتائج الضّارة للسلطة المطلَقة التي كان يمارسها غليوم الثاني، والتي انتهت بثورة ألمانيا، وتلتها محاكمة المذنبين.

مرضه وموته

يروي صرّوف[٥] أنّ شبلي، في السنوات الأخيرة من حياته، كان عرضة لنوبات الربو التي كانت تقطع تنفّسه. ولكن بمجرّد انتهائها، كان يُعاود نشاطاته وابتسامته. وهو نفسه يقول لنا، سنة ١٩٠٧، في الصحيفة العربيّة المصريّة **الأخبار**[٦]، أنّ داء المفاصل قد رافقه منذ طفولته[٧]، وأنّه لا يوجد علاج يمكن أن يريحه، وأنّه كان يسبّب له الأرق ممّا كان يجعله يمضي لياليَ كاملةً في القراءة والتأمّل. وفور عبور الأزمة كان يبادر إلى كتابة الأفكار التي راودته[٨]. أحيانًا كان يتعزّى بقراءة الوصف الذي أعطاه أحمد فارس الشّدياق[٩] لنوبة الربو. أما في ما يتعّلق بلحظة حصول نوباته، فقد كان يقارن نفسه برجل يُدفن حيًّا[١٠]. تصف إيمي خير (ص ٣١) التأثير المريع لهذا الدّاء على الشميّل: "لقد أعاد المرض تشكيله. فأصبحت رقبته مغروزة في الكتفَين، يمشي بخطوات بطيئة ساحبًا ساقَيه، ممسكًا بعصًا لم تكن تفارقه[١١]، يتعكّز عليها تارة من الأمام وطورًا من الوراء، وكان يضطرّ إلى البقاء واقفًا، خوفًا من أن يفقد التوازن عند السّعال. وكان يجلس منفرج الساقَين، صدره ملقى على ظهر الكرسيّ". حدثت له أوّل نوبة من هذا النوع حين كان يُلقي خطابًا عن الأعمال

---

[١] مراجعة **الكتاب التذكاريّ لجريدة البصير**، المرجع نفسه، الصفحة نفسها، ص ١٠٣ ؛ خير، ص ٣٦.

لا تذكر السّيدة خير المصادر التي أخذت منها كلّ هذه المعلومات عن الشميّل. لكنّنا نعتقد أنّها أخذتها من كتابه المعنون **مساوئ الهيمنة التركيّة ومسؤوليّة أوروبّا**، المذكور من قِبَل لو سيرف (مراجعة [ما ورد سابقًا، ص ٢٠، حاشية رقم ٩]).

[٢] خير، ص ٣٥

[٣] ص ٣٩ – ٤٠.

[٤] اتّصالات شخصيّة [المقصود أنّ هارون يُورِدُ معلومته هذه استنادًا إلى اتّصال شخصيّ أجراه بالسيّدة "فينا بولاد"].

[٥] **أعلام**، I، ص ٢٩٢ ؛ **مقتطف**، L / ١٩١٧، ص ١١٠.

[٦] مقالة بتوقيع **"معدي – كرب"**، نشرُها مُعادٌ في **المجموعة** [الجزء الثاني] للشميّل، مقالة رقم ٤٦، ص ٢٤٢– ٢٤٧.

[٧] وهذا مثبّت أيضًا من خلال مقالته **الدفن والمدافن وعلامات الخوف**، في **المجموعة** [الجزء الثاني]، مقالة رقم ٦٩، ص ٣٣٨.

[٨] مراجعة المرجع نفسه، ص ٢٤٢–٢٤٣.

[٩] المرجع نفسه، ص ٢٤٦ – ٢٤٧.

[١٠] مراجعة **المجموعة** [الجزء الثاني]، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[١١] يخبرنا الشميّل بنفسه، في كتابه **المجموعة** [الجزء الثاني] (ص ٨٩)، بأنّه قد أُصيب، سنة ١٨٩٦، بألم في يديه ورجليه، "كان يجبره على استعمال العصا وارتداء القفّازات"، بالرغم من نفوره من هذه الأشياء. كانت القفّازات تحمي يديه من ضربات الهواء، والعصا كانت تمنع ظهره من التحطّم، ورجليه من التعثّر أثناء المشي. وكانت كلاب الحيّ تعوي لرؤيته مع هذه الأدوات.

الخيريّة. "ينهار بعد إصابته بألم شديد في صدره وتتشبّث يداه بعنقه". أصيب قلبه في الصميم. كان يعالجه ابن أخيه الدكتور إدوار الشميّل. نجا من الموت، "لكنّه كان يُدرك أنّ موته قد اقترب"[١].

استيقظ شبلي الشميّل في صباح ١ كانون الثاني ١٩١٧. تمنّى سنة خير لزوجته ودخل إلى الحمّام. سرعان ما سمعت زوجته أنينًا، ثمّ صوتًا يصرخ: "يا الله!". ركضَتْ ووجدَتْه ممدّدًا بلا حراك في حوض الاستحمام المملوء حتّى نصفه. علا صراخها، فأسرع الخدم وأولادها بالقدوم. ووصل الدكتور إدوار الشميّل بعد فوات الأوان[٢]. مات شبلي إثر نوبة ربو جديدة[٣].

ذُهِلَتِ الأوساط الفكريّة بخبر هذا الموت المفاجئ[٤]. أُقيمت له جنازة ضخمة في اليوم التالي. واحتُفل بالصلاة لراحة نفسه في كاتدرائيّة الروم الكاتوليك[٥]. وقد حضر الدفن وجهاء من القاهرة وضواحيها، فضلًا عن شخصيّات رسميّة وعدد كبير من الأصدقاء[٦]. وتمّ إلقاء عدد كبير من كلمات الرّثاء، من بينها قصيدة جميلة لخليل مطران[٧]. وبعد أربعين يومًا من موته، في ٩ شباط[٨]، أُقيم في نادي الاتّحاد السّوريّ في القاهرة لقاء تأبينيّ في ذكراه[٩]. وقد حضر علماء وأدباء ووجهاء، من الرجال والنساء. ترأّس المجلس وزير التعليم السابق، أحمد حشمت باشا. والذين ألقوا الخطب كانوا، إلى جانب الرئيس، كلّ من يعقوب صرّوف، والشيخ محمّد رشيد رضا، والدكتور كحيل[١٠]، وحسن باي شريف[١١]، وإميل جرجي زيدان[١٢]، وأنطون الجميّل[١٣]، والشّاعر حافظ ابراهيم[١٤]، وأخيراً رشيد الشميّل، صاحب صحيفة **البصير** وابن أخ الدكتور شبلي، وقد تكلّم هذا الأخير باسم عائلة الشميّل[١٥].

---

[١] خير، ص ٣٦.

[٢] المرجع نفسه، ص ٤٢.

[٣] مراجعة **المقتطف**، L / ١٩١٧، ص ١١٠ ؛ **المشرق**، XXIV / ١٩٢٦، ص ٥٠٢ ؛ **الهلال**، ص ٢٥ (١٩١٧)، ص ٤٢٢. وأقوال فينا بولاد تثبت هذه الرواية. ابنة زوجة شبلي تخبر، من جهة أخرى، بأنّ والدتها، زوجة شبلي، ماتت بعد هذا الأخير بخمس عشرة سنة، أي حوالي سنة ١٩٣٢.

[٤] **أعلام**، I، ص ٢٩٢ ؛ خير، ص ٤٢.

[٥] مراجعة **المقتطف**، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[٦] **أعلام**، المرجع نفسه، الصفحة نفسها ؛ خير، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[٧] مراجعة **المقتطف**، المرجع نفسه، الصفحة نفسها ؛ خير، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[٨] في ١٠ شباط بحسب مَيّ زيادة، وفي ٩ بحسب صرّوف.

[٩] مَيّ زيادة، في **الصّحائف**، منشورات السّلافيّة، القاهرة، ١٩٢٤، ص ١٩٩، عدد رقم ١ ؛ الشيخ محمّد رشيد رضا، في **المنار**، XIX / ١٩١٧و ص ٦٢٩.

[١٠] لقد تكلّم عن شميّل الطّبيب؛ والدكتور كحيل كان طبيبًا.

[١١] عالج مواقف الفقيد فيما يتعلق بالقضايا الاجتماعيّة.

[١٢] ابن جرجي زيدان وهو محرّر في مجلّة **الهلال** بعد موت هذا الأخير.

[١٣] أصله من بكفيّا (لبنان)، سياسيّ، صحافيّ مشهور، ومحرّر ذائع الصّيت في الجريدة المصريّة الكبرى **الأهرام** التي أسّسها سليم تقلا.

[١٤] شاعر مشهور في ذلك الوقت، عاصَرَ أحمد شوقي وخليل مطران، والثلاثة كانوا مقيمين حينها في مصر.

[١٥] مراجعة **المقتطف**، L / ١٩١٧، ص ٢٦٦ – ٢٦٩.

كتبت صحيفة **البصير**، بمناسبة وفاته، تصف صورته الخارجيّة: "كان المأسوف عليه المتوفّى قصير القامة نوعًا ما، ولكنّه كان يتمتّع بعقلٍ كبير. كان عريض الكتفَين، وعضلاته نامية. كانت بنيته قويّة، وبشرته بنيّة اللّون"[١].

[١] **الهلال**، XXV / ١٩١٦، ص ٤٢٣ (مقال مأخوذ من **البصير**، الصحيفة التي لم تصل إلينا).